تاريخ النساء

«الأعاجيب من قصص نساء الإنس والجان»

محمد عبده مغاورى

مكتبة الإيمان
المنصورة أمام جامعة الأزهر
ت ٢٢٥٧٩٨٢

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة : أمام جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، رب الأرض والسماء، الكل كائنٌ بأمره، والكل خاضع لحكمه، سبحانه بين الكاف والنون أمره: كن فيكون كلٌ بعلمه.

والصلاة والسلام على من لا نبى بعده محمد بن عبد الله صاحب الذكر، ذكره من قبله ومن بعده، فالكل أثنى عليه فتلك إرادة من أحبه، محمدٌ حبيب الإله، فصلى اللهم عليه وعلى من أحبه.

أما بعد:

فإن العلوم كثيرة وإن الأصول للعلوم يجب أن تكون وفيرة؛ لأن الأصول بناءٌ للعلوم، فكل علمٍ يقوم على غير أساس ينهار، فذا طبيعة العلوم مُنذ أمر بها مكور الليل والنهار، فالفقه له أصول والحديث له أصول والفيزياء لها أصول والكيمياء لها أصول...... إلخ.

ولكن ما هو الأصل الذى يُبنى عليه الحضارة، وتقوم عليه كل العلوم، لابد وأنه أصلٌ عظيم ومنبعٌ عظيم حتى يتدفق منه نُبذة عن كل شيء. أتدرون ما هو ذلك الأصل؟

إنه التاريخ. أجل إنه التاريخ الذى يُسَجِّل ما كان فى العصور السابقة وسيسجل ما سيكون فى العصور القادمة بأمر الله وحده.

ولكننا لن نقف أمام التاريخ بأكمله فهو بحرٌ خضم ولكن سأكتفى بأمر المولى عز وجل بالوقوف أمام حال النساء فى التاريخ. هل يا ترى كانوا ملوك أو حكام أو كان من النساء من اشتهرت بالحكمة وأصلحت جماعات، أو استطاعت أن تكتب لنفسها عملاً يجب أن يكتبه التاريخ.

أم كانت المرأة عبر كل العصور وكل الأزمنة كما هى الآن لم تتغير منذ أن خلق الله حواء..

هذا ما نود استعراضه فى هذا الكتاب الذى اعتبره فريداً من نوعه فأغلب من كان قبلى من العلماء الأجلاء لم يتحدثوا فى ذلك الموضوع ولست أدرى ، لما لم يكتب إلى الآن تاريخ للمرأة؟

هل ياترى لأنها ناقصة عقل ودين؟ أم أن ذلك يرجع لأنها لم تعمل أى عمل عبر تلك العصور ويُشيد ذلك العمل بمكانة المرأة. ياترى ماهو الرد ؟

أقول والله ولى التوفيق سويا هذا الكتاب المتواضع ولننظر إلى مافيه وسنجد بأمر الله ردًا على تلك الأسئلة. بل وسنعلم أيضاً أن للمرأة دورًا ولكن للأسف أهمل ولم يذكر فالمرأة رغم أنها كانت علامة سيئة فى بعض العصور إلا أنها أثبتت فى عصور أخرى أن له أسلحة غير جمالها وأنوثتها .

فمن النساء من حكم وملك الأرض ومن النساء من كانت قائدة لجيش هو أقوى الجيوش فى عصرها ومن النساء من كتب سطورًا سيظل التاريخ يذكرها إلى قيام الساعة .

نعم المرأة لها دورًا هاما فى التاريخ ينبغى أن نذكره وأرجو من المولى عز وجل أن أذكر الموضوع بشمولية حتى تعرف المرأة قيمتها الحقيقية وتعلم جيدًا أنها ليست أداة تحرك بواسطة الرجل ولكنها لها دوران كانت من أولى العقول والأبصار وهذا الدور قد كتبه التاريخ ومع «تاريخ النساء» نمضى ونسترسل دور المرأة ومكانتها وحقيقتها التى كشف التاريخ عنها، وأفصح عن منزلتها، وأخيرًا أقول فلنقرأ بأمر الله هذا الكتاب ولنتدبر كل كلمة من كلماته حتى تعلم المرأة ماينبغى أن تكون عليه. والله ولى التوفيق .

المؤلف

محمد عبده مغاورى

تمهيد

لولا الإنسان كان الأصل فيه النسيان لما سُمِىَ إنسان، ولولا القلم لما كانت السطور فاللوح لا يُسطَر إلا بالقلم وبأمر رب الدور، ولولا التاريخ لما كان التقدم، فالتقدم يحتاج إلى مُرشد وبالطبع لا يوجد مُرشد إلا الدين الرشيد الذى ينبأ أن فى قصص السالفين لعبر وعظات وأن فى قصصهم لآياتٌ بينات تدفع البشرية بأكملها إلى الاعتراف بحكمة سيدها.

ولعلنا سَنَسطُرُ فى كتابنا هذا من أنباء وأخبار بالطبع كلها عن النساء وسيسألنى الكثيرين. لماذا تاريخ النساء؟

والإجابة بأمر المولى عز وجل: إن النساء ذات بصمات قوية فى التاريخ ولكن للأسف لم يُخصص أحد علماء التاريخ كتاباً للنساء رغم أن المرأة كانت وما زالت ذات أقوى تأثير على حياة الشعوب، فمن النساء من ذل القادة والعظماء، ومن النساء من حكم الممالك والجيوش، ومن النساء من أغوى العبيد وقادهم إلى التهلكة.

نعم هذه هى الحقيقة فالنساء ذات قدرات خاصة ولا تتعجبوا حينما أقول لكم أن النساء غوت الأنبياء ومن لا يُصَدِق فليتتبع معى جيداً ما سأذكره فى تاريخ النساء.

ولقد راعيت فى هذا الكتاب أن يقسم إلى أربع أقسام وهى: -

١ - **القسم الأول:** - نساء ما قبل البعثة المحمدية: - وهذا القسم يتحدث عن ممالك النساء وحياتهم سواء كانت المرأة من الإنس أو كانت من الجن ولا عجب فى ذلك فمن الواجب أن نذكر المرأة التى كانت أمها من الجن وهى (بلقمه بنت الجنية ريحانة) التى كانت تملك من الجيوش ما تملك وأرجو من الله أن يكون الشرح وافى.

٢ - **القسم الثانى:** - نساء أثناء البعثة المحمدية: - وهذا القسم يتحدث عن المرأة وتاريخ الحرية حيث أصبحت المرأة ذات رأى وأهمية وأخذت وضعها الحقيقى فى الحرية الحقيقية وهى الحرية الدينية التى من خلالها أظهرت المرأة قدرتها الفائقة

على الفكر والمشاركة.

٣ ـ القسم الثالث: ـ المرأة بعد البعثة المحمدية: ـ وهذا القسم يتحدث عن نساء السلف الصالح وبعض الصحابة وفيه بيان لما كانت عليه المرأة من سمات الحضارة الحقيقية وأيضا الحرية بمفهوم الحرية لا بمفهوم الجهل والانسياق وراء الحريات الزائفة التى من المفروض أن نطلق عليه «الخلاعة فى رداء الحرية» وسأذكر إن شاء الله باستفاضة كيف كان حال الأحرار من النساء اللاتى ارتدن رداء الحرية الحقيقية.

٤ ـ القسم الرابع: ـ المرأة فى عصرنا: ـ وبالطبع هذا القسم يعلمه الكثير من الناس ولكن للأسف يعلمونه بالأقنعة التى ترتديها لا بالحقيقة التى ينبغى أن ينظروا إليها، لذلك سأحاول إن شاء الله أن أنزع الأقنعة وأجعلكم تنظرون للحقيقة عارية وأرجو أن تحكموا أنتم فلن أحكم أنا ولكن سأترك الحكم لكم بعد القراءة ،ولكن قراءة الحقيقة لا الزيف ورؤيا الأقنعة.

وأخيرا أرجو من المولى عز وجل أن يوفقنى فى سرد وبيان كل الأحداث التى أعتقد أنها شيقة.

ولكن هذا اعتقادى ولست أدرى هل يكون ذلك رأيكم أيضًا؟ أرجو من الله أن يكون هذا رأيكم وأرجو من الله أيضا أن تنتفعوا بهذا الكتاب المتواضع فتتبعواً الأحداث جيداً وتروا كيف الانتفاع؟ وأين طريق الحرية الحقيقية؟ وهل يا ترى نساء الجن أذكى أم نساء الإنس؟

وأختم قائلا: اللهمّ النفع نسألك والهداية نسألك والعفاف نسألك وأمور الخير نسألك فمن سواك نسأله فاستجب لنا واجعل الهداية طريقنا واكتب لنا النجاة فى الدنيا والآخرة.

اللهم آمين

المؤلف

محمد عبده مغاورى

المرأة قبل البعثة المحمدية

تميزت المرأة قبل البعثة المحمدية باستخدام الأسلحة الطبيعية التى وضعها الله لها من حيث الجمال الفتاك أو المكر والدهاء أو الخداع والمماطلة أو نعومة الحديث ولين الكلام فأسرت العباد واستطاعت أن تكون هى القائدة بدون منازع، ولكن بالطبع، الكلام يحتاج إلى دليل، لذلك فلننظر سويا إلى الأحداث التى جرت من عصر آدم إلى عصر النبوة المحمدية وفى العصور التى بينهما نرى أكبر دليل على صدق كلامنا، ولكن قبل أن نبدأ سويا بأمر المولى عز وجل فى ذكر الأحداث ينبغى أن أوضح أن لكل قاعدة شواذ فكانت المرأة الصالحة المؤمنة النقية نادرة ولكنها كانت موجودة فينبغى أن لا نغفل عن ذكرها، لذلك سنجد فى قصصنا، قصص يمدح النساء فهن رغم مكرهن وسيطرتهن فى العصور السابقة إلا أنهن كن ذوات قلب رحيم.

نعم فالمرأة الأصل فيها الحب قبل الكره ورقة القلب قبل غلظته فهى على النقيض من الرجل، ولكننا لا نغفل عن مكرهن فقد تعلم منهن إبليس نفسه ومن لا يصدق فليتمعن جيداً فيما سنذكره إن شاء الله من أحداث

حواء :

بالطبع حواء هى أم النساء، وهى الأصل وهى السبب فيما تعانيه المرأة من آلام، نعم هذه هى الحقيقة التى يجب أن نعلمها جميعًا فسبب خروج ذرية آدم من الجنة هو آدم؛ لأنه أكل من الشجرة وسبب ما فيه المرأة من آلام الدورة والحمل أن حواء أكلت من الشجرة ولكن يا ترى ما هى قصة حواء؟ وكيف تكون حواء السبب؟ ومن أذكى حواء أم إبليس؟

للإجابة على تلك الأسئلة فلنبدأ بأمر المولى عز وجل فى تتبع أحداث قصة حواء.

أولاً: ـ حواء ليست من ضلع أعوج:

لا تتعجب أخى القارئ من تلك المقولة فهى ليست حقيقة بالطبع ولكنى للأسف وجدتها فى أحد الكتب الجميلة التى تحدثت عن المرأة ولا يوجد أى

عجب فى ذلك فربما يكون الكتاب فى غاية الجمال من حيث الموضوع والعناصر ولكن به بعض الأخطاء التى يجب أن تصحح دون ذم صاحب الكتاب فآداب العلم تُحتم التصحيح دون التقبيح.

وهذا الكتاب كان للإمام ابن الخطيب حيث ذكر فيه ما هو نصه: ـ

«ذهب آخرون إلى أن حواء: ـ خلقت من ضلع الرجل «آدم» واستدلوا على ذلك باعوجاجها كاعوجاج الضلع، وما هى من الضلع، وما هى بعوجاء، واستعانوا على قولهم هذا بأحاديث: ـ لم تبلغ صحة المنقول، وبيان المعقول!

وإنما حملهم على اعتقاد خلقتها من آدم: ـ قول البارئ الحكيم: ﴿وخلق منها زوجها﴾ وجاء فى التوراة والإنجيل ـ وهما مبدلان ـ من أن خلقتها: ـ كانت من ضلع آدم.

وسار على ذلك جل المفسرين. إن لم يكن كلهم وقد تسبب عن ذلك: ازدراء المرأة، وإهمال شأنها؛ لأن خلقتها لم تكن ابتداء، كخلقة آدم (الرجل).

وإذا سرنا وراء هذا الفهم الخاطئ، لكانت كل امرأة مخلوقة من زوجها.

ألم يقل المولى جل وعلا: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ كما قال عن حواء: ﴿وخلق منها زوجها﴾.

وإنما أراد المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿منها﴾ أى من جنسها وطبيعتها، لا أنها خلقت من جزء منه[1].

هذا الكلام الذى تم نقله من كتاب ابن الخطيب لم أذكره إلا لأنى أخشى أن يقرأ فيعرف فَيُحَدَثُ به الناس وهو خطأ عظيم.

والسؤال الآن، ما هو وجه الخطأ فى هذا الحديث؟

والإجابة: إن الأصل فى الاستدلال (المنقول قبل المعقول) ومعنى ذلك أن النص القرآنى والنص الدينى ورد عن رسول الله ﷺ لابد أن يُقَدَم على كلام الرجل إذا أراد الاستدلال هذا من جهة وقد وردت أحاديث تدل على أن حواء خلقت من ضلع أعوج ولننظر إلى الحديث الذى رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه

(١) النص موجود فى كتاب المرأة فى شتى العصور: ١٠، ١١.

قال: «استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

ثم لننظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ والمقصود بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ولا يوجد مجال للتشكيك هنا كما سبق وشك فى تفسير الآية ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ فقال: المقصود الجنس أى من نفس الجنس. فيا ترى ماذا سيكون الرد على تفسير تلك الآية: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾[2].؟ فبالطبع أن خلط الأمور كما خلطها هو أمر غير صحيح فقد استعان على تفسير آية بآية أخرى لا تنطبق عليها فهنا: ﴿خلقكم من نفس﴾ أى آدم. ولا مجال للشك فى ذلك.

وقد قال: إن خلق حواء لم يكن ابتداء كخلقة آدم مما أدى إلى ازدراء المرأة وإهمال شأنها. وبالطبع هذا الكلام مرفوض عقلاً لأنه ليست من الشرط تحقير المؤخر. وإلا كان إبراهيم أو عيسى عليهما السلام أعلى قدراً من محمد ﷺ الذى جاء عقب كل الأنبياء رغم مكانته العالية.

هذه هى الحقيقة المرأة لا تهمل لأنها خلقت مؤخراً فهذا الكلام باطل.

وبعد الرد على ابن الخطيب سنذكر الآن بأمر المولى عز وجل القصة الحقيقية لخلق حواء وهى:

«أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومه فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت؟ قالت: ـ امرأة، قال: ـ ولم خُلقْتِ؟ قالت: ـ لتسكن إلىّ.

فقالت له الملائكة ـ ينظرون ما بلغ من علمه: ـ ما اسمها يا آدم؟ قال: ـ حواء.

قالوا: ولم كانت حواء؟

قال: ـ لأنها خلقت من شىء حى.

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى (٢) النساء: ١

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً ومصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء﴾[1]،[2].

هذه هى القصة الحقيقية لخلق حواء ولكن يا ترى هل هى أذكى وادهى أم إبليس؟

ثانيا: ـ حواء لم تكن السبب فى خروج آدم من الجنة:

لا يتعجب أحد إذا قلنا أن حواء لم تكن السبب فى خروج آدم من الجنة فهذة هى الحقيقة؛ لأنها أغوت آدم وفقط وكان لآدم أن يرفض عرضها فى الأكل من الشجرة.

كما رفض من قبل عندما زين له الشيطان الشجرة. ولكن يا ترى لما وافق حواء؟

وللإجابة على هذا السؤال الذى يعتبر من أهم الأسئلة؛ لأنه سيجيب أيضا عن سؤال آخر وهو: من أدهى وأذكى حواء أم إبليس؟

ونقول من أراد الإجابة فليتتبع الأحداث وسيعلم أن الحقيقة التى يجب أن يعرفها كل البشر أن حواء هى التى علمت إبليس وليس إبليس هو الذى يعلم حواء.

نعم ولننظر سويا إلى القصة التى يذكرها التاريخ وسنحللها سويا إن شاء الله بعد ذكرها وهى: ـ

يحكى الإمام الطبرى فى تاريخه تحت عنوان: «امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام» ما هو نصه: «فلما أسكن الله عز وجل آدم عليه السلام وزوجه أطلق لهما أن يأكلا كل ما شاء أكله من كل ما فيها من ثمارها، غير ثمر شجرة واحدة ابتلاء منه لهما بذلك، وليمضى قضاء الله فيهما وفى ذريتهما» كما قال عز وجل:

---

(١) النساء: ١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٧٥، تاريخ الأمم والملوك للطبري: ١/ ٩٩.

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[1].

أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة فمنعه الخزنة، فأتت الحية، وهى دابة لها أربعة قوائم كأنها البعير، وهى كأحسن الدواب فكلمها أن تدخله فى فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته فى فمها، فمرت الحية على الخزنة فدخلت وهم لا يعلمون لما أراد الله عز وجل من الأمر، فكلمه من فمها ولم يبال كلامه، فخرج إليه فقال: ﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾[2].

يقول: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها كنت ملكاً مثل الله تبارك وتعالى أو تكونا من الخالدين فلا تموتان أبداً. وحلف لهما إنى لكما لمن الناصحين، وإنما أراد بذلك أن يبدى لهما ما توارى عنهما من سوآتهما بهتك لباسهما وكان قد علم أن لهما سوءة لما كان يقرأ من كتب الملائكة، ولم يكن آدم يعلم ذلك، وكان لباسهما الظُّفُر، فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء فأكلت ثم قالت: يا آدم كل، فإنى قد أكلت، فلم يضرنى، فلما أكل بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[3].

تحليل القصة:

بالطبع لو كنا نقرأ القصة بتدبر لعلمنا أن حواء هى أصل الإغواء وليس إبليس أتدرون لما؟

لأن إبليس فشل مع آدم ونجحت حواء ولقنت إبليس درساً لن ينساه حتى يلقى الله فيلقيه فى النار. وهذا الدرس هو «يا آدم كل، فإنى قد أكلت، فلم يضرنى» أى أنها علمت إبليس كيفية الإغواء، فتقول له عليك بالماديات إذا أردت أن تغوى البشر، وللأسف تعلم إبليس الدرس جيدا فأصبح يطبقه بحذافيره. فمثلا يأتى للرجل فيقول له: تكاسل عن الصلاة واصنع كذا فيقول الرجل: لا، فيقول إبليس: ولما لا؟ فيقول الرجل: حتى أكون فى معية الله ولا أُذلك؟، فيقول إبليس: يا هذا انظر إلى فلان ذو جاه وسلطة ونفوذ وعز و... و... إلخ وهو لا يصلى فلا بئس أن تتأخر عن الصلاة حتى تتم عملك. فيتأخر الرجل إن كان

(١) سورة البقرة: ٣٥. (٢) سورة طه: ١٢٠.
(٣) القصة بأكملها من كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى: ١/١٠١، ١٠٢

ضعيف النفس وإن كان قوى فلا يخدع بالماديات كما خُدِعَ أبو البشر (آدم).

هذه هى الحقيقة حواء ذات بصمة فى عالم الإغواء «فإنى قد أكلت فلم يضرنى» استطاعت أن تُعَلِم إبليس أن الإغواء يكون بالإثبات المادى قبل الإغواء الشفهى.

ولعل التاريخ يذكر أن بعض من قتل الملوك قد وصفوا السم بحيث لا يقتل مباشرة عند الشرب حتى إذا قال الملك للساقى: اشرب، شرب الساقى وتحامل على نفسه حتى يشرب الملك فيكون الموت مصير الاثنين.

ولعل هذه الفعلة كانت من حظ حواء قبل كل البشر فهى أكلت فجعلت آدم يأكل، وأظن أن السؤال بهذه القصة وذلك التحليل قد أُجِيبَ عليه واتضح لنا أن حواء أمهر من إبليس فى الإغواء.

ولكن يا ترى كيف كانت حواء الأم مصدر فى آلام النساء وفى آلام نفسها.

ثالثا: حواء مصدر ألم النساء:

عندما سكنت حواء الجنة كانت لا تحيض ولا تجد عناء ولادة وإلى ما شابه ذلك، فالحياة كانت حياة هناء لا شقاء، وراحة لا تعب.

ولكن تأبى حواء إلا الألم والتعب والشقاء ولمن أراد الاستزادة فلينظر إلى قول العلامة القرطبى فى تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين**﴾[1].

قال القرطبى: (المقاسمة ظاهرها المشافهة وعن وهب بن منبه: دخل[2] الجنة فى فم الحية وهى ذات أربع كالبختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حواء فقال: انظرى إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها! وأطيب طعمها! وأحسن لونها؟ فلم يذل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: «كل فإنى قد أكلت فلم يضرنى»، فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا

---

(١) الأعراف: ٢١.

(٢) دخل: المقصود هنا إبليس.

فى حكم الذنب، فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه: - أين أنت؟[1] فقال: أنا هنا يارب، قال: «ألا تخرج؟»، قال: أستحى منك يارب، قال: اهبط إلى الأرض التى خلقت منها، ولُعنت الحية وردت قوائمها فى جوفها وجُعِلَت العداوة بينها وبين بنى آدم ولذلك أمرنا بقتلها.

وقيل لحواء: «كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين على الموت مرارا»[2].

فهذه هى القصة التى تبين وتوضح أن حواء مصدر آلام النساء ولكن يا ترى هل حواء جريئة أم أنها كسائر النساء؟

وللإجابة على ذلك السؤال نقول بأمر الواحد الديان أن ماسبق ذكره عن حواء لا يؤيد أنها كانت قوية عتية ولكن يؤيد أنها كانت مصدر فتنة، ومصدر اغواء وليست مصدر قوة وسيطرة وجراة وكانت رغم فتنتها إلا أنها رقيقة القلب شأنها شأن معظم النساء وليس كل النساء. وليس هذا بقولى ولكنه قول التاريخ، ولكن موضع كلامنا الآن عن حواء ونذكر إن شاء الله ما جاء فى حواء ورقة القلب.

رابعا: - حواء ورقة القلب:

ذكرنا أن حواء لم تكن قاسية القلب ولكن ما هو الدليل.

الدليل ما ذكره الإمام الطبرى حيث قال: (ولدت حواء غلاما، فأتاها إبليس فقال: سموه عبدى وإلا قتلته، قال له آدم: قد أطعتك وأخرجتنى من الجنة. فأبى أن يطيعه، فسماه «عبد الرحمن» فَسُلِطَ عليه إبليس لعنه الله فقتله، فحملت بآخر فلما ولدته قال: - سميه عبدى وإلا قتلته، قال له آدم عليه السلام: - قد أطعتك فأخرجتنى من الجنة، فأبى وسماه (صالحا)، فقتله فلما كان الثالث قال لهما: فإذا غلبتمونى فسموه عبد الحارث، وكان اسم إبليس الحارث. فسموه)[3].

---

(١) هذا الاستفهام (أين أنت؟) استفهام انكارى من المولى عز وجل فعله آدم وليعلمه مدى قُبح المعصية وبيان ذلة الإنسان بعد المعصية.

(٢) تفسير القرطبى الجامع لاحكام القرآن: ١/ ٣٥٥، ٣٥٦، تاريخ الأمم والملوك للطبرى: ١٠٣/١.

(٣) انظر : تاريخ الأمم والملوك: ١/ ١٤١.

فهنا تبين لنا رقة قلب حواء فقد خافت على ابنها من الموت فسمته بعبد الحارث وبالطبع هذا جهل وشرك نعم شرك فى الاسم فلا عبودية إلا لله.

ولكن يا ترى هل رقة القلب تسبب المعصية؟

والإجابة: نعم فقد قال أحد السلف الصالح عندما سئل كيف النجاة من الذنوب والمعاصى؟

قال: اجعل على قلبك حارسا فإن رق وفُتِحَ لله وفى الله ومن أجل الله فأطلق له العنان، وإن رق لمعصية الله فاشدد على قلبك ولا تفتحه فيكن لك فتحا فى النار.

هذه قصة تدل على رقة قلب حواء وخوفها ولكن يا ترى هل نكتفى بهذا القدر مع أم النساء؟

أعتقد إن شاء الله أننى سأذكر كيف نزلت للأرض ومتى ماتت حتى ألم بقصة حواء فكيف هى أم النساء فى كتاب تاريخ النساء لا تُذكر قصتها كاملة.

خامسا: ـ حواء فى الأرض: ـ

بعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة وبدت سوآتهما هبطوا جميعا إلى الأرض والمقصود بجميعا (حواء، وآدم، وإبليس، والحية» أهبط آدم عليه السلام بسرنديب، على جبل يدعى بوذ وحواء بجده فى أرض مكة، وإبليس بميسان[١] والحية بأصبهان، وقد قيل أهبطت الحية بالبرية، وإبليس بساحل الأيلة[٢].

ويقول الإمام الطبرى: (أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة فجاء فى طلبها حتى اجتمعا، فازلفت إليه حواء، فلذلك سميت بالمزدلفة، وتعارفا بعرفات، فلذلك سميت عرفات، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا»[٣].

هذا بالنسبة لهبوط حواء إلى الأرض أما بالنسبة لموتها ففى رواية عن ابن عباس قال: «مات آدم عليه السلام على بوذ، قال أبو جعفر: يعنى الجبل الذى أهبط عليه» وذكر أن حواء عاشت بعده سنة ثم ماتت رحمها الله، فدفنت مع

(١) ميسان: ـ اسم لكورة واسعة بين واسط والبصرة. انظر معجم البلدان.
(٢) الأيلة: ـ بلد على شاطئ دجلة بالبصرة. انظر معجم البلدان.
(٣) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى: ـ ١/ ١١٤.

زوجها فى الغار الذى ذكرت، وأنهما لم يزالا مدفونين فى ذلك المكان حتى كان الطوفان.

فاستخرجهما نوح، وجعلهما فى تابوت، ثم حملهما معه فى السفينة، فلما غاضت الأرض الماء ردهما إلى مكانهما الذى كانا فيه قبل الطوفان، وكانت حواء قبل موتها قد غزلت ونسجت وعجنت وخبزت، وعملت أعمال النساء كلها»[1].

وأختم هنا قائلا أن حواء قد ورثت للنساء كل صفاتها وتركت لهم ما تركت من آثار لابد أن تتدبرها كل امرأة وتنظر هل ستكون حواء ثانية فيضرب عليها التعب لا الراحة. نعم هذه هى الحقيقة لولا حرص حواء على اللذة لما كان من نصيبها الدم والحيض وألم الولادة. ولكن الله يفعل ما يريد حتى يتعظ العبيد وأقول أخيراً لا نظلم حواء ولكن لنتعلم طاعة الله لا طاعة أنفسنا وشهوتنا.

(١) المرجع السابق: ١/ ١٥٢.

سارة وهاجر زوجا إبراهيم عليه السلام

قلت بأمر المولى عز وجل فى أول الباب أن هناك نساء صالحات مؤمنات ينبغى ويجب أن نذكرهم ولا نغفل عنهم فكما كُتِبَ عن الرجال فى الصلاح. وجد آثار للنساء فى الصلاح بل وأشد من ذلك ولنتبع سوياً أحداث سارة وهاجر زوجا إبراهيم عليه السلام لنعلم أن هناك نساء كانوا على الصراط ضربهم. ولله كل أعمالهم.

أولا: ـ كذب النبى وصدقت المرأة:

بالطبع هذا العنوان سيجعل الكثيرين فى حيرة ما بعدها حيرة كيف يكذب النبى وتصدق المرأة؟ هل هذا الكلام معقول؟

وللإجابة على ذلك السؤال نقول بأمر الواحد الديان: لم أتعود ذكر أى خبر إلا بدليل وبراهين حتى يكون الكلام فى مضمار الحق لا يشوبه شائبة من الباطل لذلك سأسوق إليكم بأمر المولى عز وجل الأحداث ولتحكموا أنتم على هذا العنوان.

يقول الإمام الطبرى فى تاريخه: «انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم فتزوجها على ألا يغيرها، ودعا إبراهيم أباه آزر إلى دينه، فقال له: ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا﴾ فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه. ثم إن إبراهيم ومن كان معه من أصحابه الذين اتبعوا أمره أجمعوا لفراق قومهم فقالوا: ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أيها المعبودون من دون الله ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أيهاالعابدون﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[1].

ثم خرج إبراهيم مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط مهاجراً وتزوج ساره، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر، وبها فرعون من الفراعنة الأولى.

---

(١) سورة الممتحنة: ـ ٤.

وكانت سارة من أحسن فيما يقال، وكانت لا تعصى إبراهيم شيئا، وبذلك أكرمها الله عز وجل، فلما وصفت لفرعون ووصف له حسنها وجمالها أرسل إلى إبراهيم فقال: ما هذه المرأة التى معك؟ قال: هى أختى، وتخوف إبراهيم إن قال هى امرأتى أن يقتله عنها.

فقال لإبراهيم: زينها، ثم أرسلها إلىّ حتى أنظر إليها.

فرجع إبراهيم إلى سارة وأمرها فتهيأت، ثم أرسلها إليه، فأقبلت حتى دخلت عليه، فلما قعدت إليه تناولها بيده، فيبست إلى صدره، فلما رأى ذلك فرعون أعظم أمرها، وقال: ادع الله أن يُطلقَ عنى، فوالله لا أريبك ولأحسنن إليك.

فقالت: اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده، فأطلق الله يده فردها إلى إبراهيم ووهب له هاجر جارية له قبطية»[1].

وبعد أن ذكرنا تلك القصة التى ساقها لنا التاريخ هل نستطيع أن نحكم بكذب النبى وثبات المرأة؟

نعم ولا شك فى ذلك مطلقاً كذب إبراهيم عليه السلام فى حيث صور التاريخ أعظم صورة للمرأة الطائعة الأمينة التى تخاف المولى عز وجل ولا تخشى أحد سواه. تلك المرأة التى يجب على النساء أن يجعلوها قدوة لهم، فهى الطائعة الناجية؛ لأن المرأة إن كانت فى معية الله سلمت من كل سوء وأذى وإن خرجت عن معية الله كانت متخبطة تُحمَلُ من ميدان الجهل إلى ميدان الظُّلمة إلى ميدان الهلاك إلى القبر ثم أخيراً إلى عذاب الواحد الديان. بينما المرأة التى تكون فى معية الله فهى فى ميدان النور ينقلها إلى ميدان الرضا ينقلها إلى السعادة ينقلها إلى رضا الواحد الديان ينقلها إلى الجنة مع المتقين الأبرار.

تلك هى سارة زوج إبراهيم التي يجب على النساء أن يتخذوها كقدوة يقتدوا بها.

ولعل التاريخ لم يقتصر على ذكر سارة كعابدة تقية ولكنه ذكر غيرها وهى هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

---

(١) القصة بأكملها فى تاريخ الأمم والملوك للعلامة الطبرى: ١/ ٢٣١، ٢٣٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير: ١/ ١٥٤، ١٥٥.

ثانيا: ـ هاجر مع الله:

ربما إن جلس الرجل منا يفكر بما سيفعله إن ترك وحده في الصحراء تردد على عقله وأذنه كلمة واحدة «الصحراء لا . . لا» نعم هذه هي الحقيقة فالصحراء مُخاطرة عظيمة خصوصا إن كان المرء بمفرده فالعُزلة قد تقتله خوفا قبل أن تقتله جوعاً وعطشاً ولكن يا ترى كيف الحال إن كان ذلك مع امرأة، أظن أنه سيكون أمراً مُستحيلاً فى عصرنا، ولكن لننظر إلى هاجر تلك المرأة التى اطمأنت حينما علمت أنها فى صحبة الله ومن يريد الاستزادة فليتتبع معى ما رواه الإمام الطبرى فى تاريخه حين قال: «أن أول من سعى بين الصفا والمروة لأم إسماعيل، وأن أول من أحدث من نساء العرب جر الذيول لأم إسماعيل. لما فرت من سارة أرخت ذيلها لتعفى أثرها[1]، فجاء بها إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعهما ثم رجع فاتبعته وقالت: إلى أى شىء تكلنا؟ إلى طعام تكلنا؟ إلى شراب تكلنا؟ وكان إبراهيم عليه السلام لا يرد عليها شيئاً. فقالت: آلله أمرك بهذا. قال إبراهيم عليه السلام: نعم. قالت: «إذا لا يضيعنا»[2].

قال الراوى: فرجعت ومضى إبراهيم حتى استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال: ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾ الآية.

قال الراوى: ومع الإنسانة شنة فيها ماء، فنفذ الماء، فعطشت فانقطع لبنها وعطش الصبى فنظرت: أى الجبال أدنى إلى الأرض فصعدت الصفا فتسمعت هل تسمع صوتاً، أو ترى أنيسا فلم تسمع شيئا فانحدرت، فلما أتت على الوادى سعت ـ وما تريد السعى ـ كالإنسان المجهود الذى يسعى وما يريد السعى، فنظرت أى الجبال أدنى إلى الأرض، فصعدت المروة، فتسمعت هل تسمع صوتا أو ترى إنسيا؟ فسمعت صوتا، فقالت كالإنسان الذى يكذب سمعه: صه! حتى استيقنت،

---

(١) معنى أرخت ذيلها لتعفى أثرها: أى أطالت فى الجلباب حتى أنه كان يزحف على الأرض فيمحى الأثر «أثر القدم».

(٢) إذا لا يضيعنا: هذه هى الكلمة التى ستظل فى أكباد التاريخ لتنبأ أن المرأة ارتضت بصحبة الله وعلمت أن معية الله خيرٌ عظيم لا يُذل فيها الإنسان أبداً ولكن دوما إن كان مع الله سيكون من المنصورين.

فقالت: ، ـ قد أسمعتنى صوتك فأغثنى، فقد هلكت وهلك من معى، فجاء الملك بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم، فضرب بقدمه ففارت عيناً، فجعلت الإنسانة تُفزع فى شنتها»[1].

فقال رسول الله ﷺ «رحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معينا».

وقال لها الملك: لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد، فإنها عين يشرب ضيفان الله منها، وقال: إن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله بيتا هذا موضعه.

ومرت رفقه من جرهم تريد الشام، فرأوا الطير على الجبل، فقالوا: إن هذا الطير لعائف على ماء، فهل علمتم بهذا الواد من ماء؟ فقالوا: لا، فأشرفوا فإذا هم بالإنسانة، فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها، فأذنت لهم»[2].

هذه هى القصة بأكملها وقد سطرها لنا التاريخ ليبين أن للمرأة مواقف لا تنسى فى ميدان العبادة، والتوكل على الله والإيمان والتسليم وإن كان هذا التسليم به مخاطر أو صعوبات أو تعترضه أهوال ولعل الكل يُسَلِّمُ الآن بأن هناك من نسل حواء من كانت لله وفى الله ومن أجل الله ولكن للأسف حواء القرن العشرين ليست كحواء إبراهيم ولكن أرجو من الله أن تنتبه النساء إلى تلك المسألة وهو كونوا لله يكن الله لكم، كونوا مع الله يكن الله معكم، ارضوا بما قسم يعطيك بما عصم .

وهنا نقف قليلا لنقول هل ياترى تعرضت هاجر لابتلاء غير هذا الابتلاء؟ والإجابة نعم . تعرضت لابتلاء آخر وهو احتمالية فقد الولد ولننظر ماذا فعلت .

ثالثا: هاجر أم الذبيح :

إن النساء أصبحن فى غاية الضجر من الهموم وأصبحوا فى غاية الحزن من الكروب وفى غاية التعب من الفروض فأصبحت المرأة لاتسلم لقضاء الله ولا تُرخ الذكر قبل أن ترخى الشكوى فرحمة الله على النساء .

وبالطبع هذا الكلام نُزيدُ عليه إلا من رحم الله فهناك نساء يمتثلن لقضاء الله

---

(١) شنتها: ـ قربتها (نوع من أنواع حفظ الماء فى أوعية (قربة).

(٢) القصة من كتاب تاريخ الأمم والملوك: ١/٢٤٢، ٢٤٣.

ويكون منهم الشكر قبل الشكوى .

ولهذا رأيت أن أذكر سؤالاً للذين يقولون أن المصائب ثقيلة والمشاكل وفيرة. هل توجد مصيبة أعظم من فقد الولد؟

فإن أجابت النساء. بلا فلينظن وليتعلمن ماكان من أمر هاجر تلك المرأة التى كانت فى عصور لاتعرف المدنية كما يزعمون فلننظر ماذا فعلت وماذا قالت. حتى يكتب التاريخ قصتها ويسطر من كلماتها سطوراً أعدها من السطور الخالدة .

يقول الإمام الطبرى: «إن إبراهيم حين أُمِرَ بذبح ابنه قال له: يابنى خذ الحبل والمدية[1] ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب ليحطب أهلك منه، قبلَ أن يذكر له شيئا مما أمر به فلما وجه إلى الشعب اعترضه عدو الله إبليس ليصده عن أمر الله فى صورة رجل فقال: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه، فقال: والله أنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك فأمرك بذبح بنيك هذا، وأنت تريد ذبحه، فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عنى، أى عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربى فيه، فلما يئس عدو الله إبليس من إبراهيم اعترض اسماعيل وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة، فقال له: - يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟

قال: يحطب أهلنا من هذا الشعب

قال إبليس: والله ما يريد إلا أن يذبحك.

قال إسماعيل: - لِمَ؟

قال إبليس: زعم أن ربه أمره بذلك.

قال إسماعيل: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعاً وطاعة.

فلما امتنع منه الغلام ذهب إلى هاجر أم إسماعيل وهى فى منزلها فقال لها: يا أم إسماعيل، هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل!

قالت: ذهب به يحطبنا من هذا الشعب.

قال : ما ذهب به إلا ليذبحه.

---

(١) الحبل والمدية : أدوات تستخدم لجمع الحطب .

قالت: كلا هو أرحم به وأشد حباً من ذلك.

قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك.

قالت: «إن كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله»[1]. فرجع عدو الله إبليس بغيظه لم يُصب من آل إبراهيم شيئا مما أراد، وقد امتنع منه إبراهيم وآل إبراهيم بعون الله، وأجمعوا لأمر الله بالسمع والطاعة، فلما خلا إبراهيم بابنه فى الشعب وهو فيما يزعمون شعب ثبير - قال إبراهيم: ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام إنى أذبحك﴾ قال: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾ يا أبت إن أردت ذبحى فاشدد رباطى لا يصبك منى شىء فينقص أجرى فإن الموت شديد، وإنى لا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه، واشحذ شفرتك حتى تجهز على فتريحنى، وإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فكبنى لوجهى على جبينى ولا تضجعنى لشقى، فإنى أخشى إن أنت نظرت فى وجهى أن تدركك رقة تحول بينك وبين أمر الله وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فإنه عسى أن يكون هذا أسلى لها عنى فافعل، فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بنى على أمر الله فربطه كما أمره إسماعيل فأوثقه، ثم شحذ شفرته ثم تله للجبين واتقى النظر فى وجهه، ثم أدخل الشفرة لحلقه فقلبها الله فى يده، ثم اجتذبها إليه ليفرغ منه، فنودى: ﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه. وذلك مصداق قول الحق.

﴿فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾[2][3].

---

(١) «إن كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله»: هذه هى الكلمة التى قالتها هاجر وسجلتها كتب التاريخ حتى تكون عظة لأصحاب القلوب وذكرى لأولى الأبصار وتدبراً لأولى العقول والأفهام فلا يهملها إلى جامد ميت، ولا يعمل بها إلا من يلتمس رضا الله. ولو أننا نعقل (فمن لنا سوى الله).

(٢) الصافات: ١٠٣ - ١٠٧.

(٣) القصة باستفاضة وبالنص فى تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٢٦٠، ٢٦١ وهناك مسألة لابد من ذكرها وهى. من قال أن الذبيح كان إسحاق وأمه أى أم الذبيح سارة هم اليهود وكلامهم غير صحيح، لأن قصة الذبح قدمت على قصة البشارة بالولد أى أن ذبح إسماعيل كان قبل أن يبشر إبراهيم بمولد إسحاق ومن أراد الاستفاضة فلينظر إلى نفس المرجع وإلى البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٦٢ - ١٦٥

فهذه هى القصة بأكملها وفيها أن المرأة لو صبرت وسلمت لقضاء الله فلا يكون لها إلا ما يرضيها فإن العبد إذا كان مع الله وجعل كل أمره لله أعطاه الله ما يريد وأعد له الجنة خيرُ جزاءٍ للعبد.

وفى ذلك ما ذكره الإمام أبى عبيد القاسم بن سلام حكاية عند داود عليه السلام حينما قال له رب العزة **«يا داود إن سلمت لى فى ما أريد أعطيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد ارهقتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد»**[1].

وبعد تلك الكلمات التى لابد وأن نجعلها بأمر المولى عز وجل منهاجا نسير عليه نقول ما حالة النساء مع أبناء سيدنا إبراهيم هل كن كسارة وهاجر أم كن على خلاف من أفعال سارة وهاجر.

فلننظر من أفعال سارة وهاجر.

فلننظر سويا ولنحكم فالميزان والحكم للقارئ

رابعا: ـ السيدة بنت مضاض: «صاحبة العتبة»:

لابد وأن يكون هناك مقياس عند اختيار المرأة وما أجمل المقياس لو كان مقياساً شرعيا تنبنى من خلاله السعادة دون الشقاء ودعامة لقولى انظروا لهذا للقياس الذى وضعه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام فى المرأة.

يقول الإمام ابن جرير: ـ (عندما جلس القوم مع أم إسماعيل، أتى عليها ما يأتى على هؤلاء الناس من الموت فماتت وتزوج إسماعيل امرأة منهم، فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتى هاجر، فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل ـ أى يطيل فى المكث عند هاجر ـ، وقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر إلى بيت إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ليس هاهنا، ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع، فقال إبراهيم: هل عندك ضيافة هل عندك طعام أو شراب؟

قالت: ليس عندى وما عندى أحد، قال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولى له: فليغير عتبة بابه، وذهب إبراهيم وجاء إسماعيل، فوجد ريح

---

(١) كتاب الخطب والمواعظ لأبى عبيد القاسم بن سلام.

أبيه فقال لإمرأته: هل جاءك أحد؟

قالت: جاءنى شيخ صفته كذا وكذا (كالمستخفة بشأنه).

قال: فما قال لك؟

قالت: قال لى: أقرئى زوجك السلام، وقولى له: فليغير عتبة بابه فطلقها إسماعيل عليه السلام وتزوج غيرها وكانت الزوجة الثانية هى «السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى».

فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له واشترطت عليه ألا ينزل، فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟

قالت: ذهب يتصيد وهو يجىء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله! قال لها: هل عندك ضيافه؟ قالت: نعم، قال: هل عندك خبز وبرا وشعير أو تمر؟

فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة (فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر رضى الله براً وشعيراً وتمرا».

فقالت: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعته عن شقة الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه عليه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولى له: قد استقامت عتبة بابك.

فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحاً، فقال لى: كذا وكذا، وقلت له: كذا وكذا، وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام، قال، وما قال لك؟، قالت: قال لى: إذا جاءك زوجك فأقرئيه السلام، وقولى له: قد استقامت عتبة بابك، قال إبراهيم، فأثبتها»[1].

هذه إحدى زوجات أبناء إبراهيم وهى زوجة إسماعيل ولكن السؤال الآن. كيف كانت زوجة إسحاق؟

---

(١) القصة من تاريخ الأمم والملوك: ٢٤٣/١ ـ ٢٤٦ وبهذا النص وردت فى الكامل دون إضافة وكذا هو فى البداية والنهاية بمعناه.

خامسا: ـ أم عيص صاحبة المكر العويص:

التاريخ يشهد للنساء بالمكر والخداع ويقر لهم الحيلة والذكاء هذه حقيقة يسطرها التاريخ ولننظر سوياً فى صفحاته حتى نستزيد فى تلك المسألة.

يقول الإمام ابن جرير: ـ (تزوج إسحاق امرأة فحملت بغلامين فى بطن، فلما أرادت أن تضعهما اقتتل الغلامان فى بطنها فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص، فقال عيص: ـ والله لئن خرجت قبلى لأعترضن فى بطن أمى ولأقتلنها، فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله، وأخذ يعقوب بعقب عيص، فخرج فسمى عيصاً؛ لأنه عصى، فخرج قبل يعقوب، وسمى يعقوب لأنه خرج آخذاً بعقب عيص. وكان يعقوب أكبرهما فى البطن، ولكن عيصاً خرج قبله. وكبر الغلامان، فكان عيص أحبهما إلى أبيه، وكان يعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيص صاحب صيد فلما كبر إسحاق وعمى، قال لعيص: يا بنى أطعمنى لحم صيد واقترب منى أدع لك بدعاء دعا لى به أبى، وكان عيص رجلا أشعر «شعره يملأ جسمه بغزارة» وكان يعقوب رجلاً أجرد، فخرج عيص يطلب الصيد، وسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: «يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة ثم اشوه، والبس جلده وقدمه إلى أبيك، وقل له: ـ أنا ابنك عيص[1].

ففعل ذلك يعقوب، فلما جاء قال: يا أبتاه كل، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك عيص، قال: فمسه «أى تحسس جسده» فقال: المس مس عيص والريح ريح يعقوب، قالت أمه: هو ابنك عيص فادع له، قال: قدم طعامك فقدمه فأكل منه، ثم قال: ادن منى (اقترب منى)، فدنا منه، فدعا له أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك، وقام يعقوب، وجاء عيص، فقال: قد جئتك بالصيد الذى أمرتنى به، فقال: يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب، فغضب عيص وقال: والله لأقتلنه. قال إسحاق: يا بنى قد بقيت لك دعوة، فهلم أدعو لك بها، فدعا له، فقال: تكون ذريتك عدداً كثيراً كالتراب ولا يملكهم أحد غيرهم.

---

(١) هذه العبارة هى التى تدل على مكر النساء لأنها علمت أن إسحاق سيعرف يعقوب من ملمسه فأرشدته إلى لبس فروة حتى يكون ملمسه كعيص ولأنها أيضا علمت أن الدعوة هى دعوة النبوة فأرادت أن تختطفها إلى حبيب قلبها يعقوب «فما أشد مكرك وذكاءك يا أم عيص».

وقالت أم يعقوب ليعقوب: الحق بخالك فكن عنده خشية أن يقتلك عيص، فانطلق إلى خاله، فكان يسرى بالليل ويكمن بالنهار[1] ولذلك سمى إسرائيل، وهو سرى الله، فأتى خاله، وقال عيص: ـ

أما إذ غلبتنى على الدعوى فلا تغلبنى على القبر، أن أدفن عند آبائى: إبراهيم وإسحاق، فقال: لئن فعلت لتدفنن معه)[2].

وفى نهاية القصة عزاء لعيص حيث صبر نفسه بالدفن مع آبائه ولكن التاريخ يشهد أن مكر أمه ما بعده من مكر فقد خدعت الرجال ولكن كل شيء بأمر الله.

ولنكتفى بهذا القدر على نساء إبراهيم وأبنائه ولننتقل إلى تاريخ نساء الأنبياء الآخرين. وهل يا ترى كان من نساء الأنبياء من تزنى وتفعل الفواحش أم لا؟

*****

امرأة لوط وامرأة نوح

إن هناك كثيراً من الرجال يظنون ظناً خاطئا وهو أن الرجل الصالح لابد أن يتزوج من امرأة صالحة ويبرهن بقوله تعالي: ﴿الطيبون للطيبات﴾ ولكن للأسف هذا فكرٌ خاطئ فالرجل الصالح قد يُبتلى بامرأة سيئة الخلق. فعليه أن يصبر عسى الله أن يُصلح شأنها ولعلى سأذكر لكم قصة ليست من التاريخ ولكن سمعتها فأعجبتنى وسأذكرها لكم قبل ذكر الدلائل التاريخية لعلها تُسرى عن القلوب: ـ

(يُحكى أن رجلاً من الصالحين كان يقف بالناس إماماً ويخطبهم يوم الجمعة وكان ذو حلاوة فى لسانه كلامه طيب ومجلسه طيب ولكن عهد عليه الناس امرأة ذات لسان سليط وأفعال لا تطاق ولكنه كان يصبر ويدعو الله لها عسى أن يهديها ولكنها كانت تزداد. وفى يوم من الأيام قال الرجل لها: يا امرأتى والله إنى لذو شأن وسط قومى وإن لى لمكانة بين الناس ولئن شئت فتعالى معى وانظرى إلى يوم الجمعة. فذهبت معه المرأة وبعد الخروج من المسجد والذهاب إلى البيت قال لها: ما رأيك فى زوجك.

قالت: كُل الناس كانت تجلس فى راحة إلا أنت تحب التعب فتصعد وتهبط

---

(١) يسرى بالليل ويكمن بالنهار: ـ أى يسير بالليل ويختبأ فى النهار.

(٢) القصة بأكملها فى تاريخ الطبرى: ١/ ٣٠٢، ٣٠٣.

وتتحدث. تهوى التعب.

فضحك الرجل وقال: سامحك الله. ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ إن ما حدث ستعجبون له. لقد ماتت المرأة ولكن ماذا فعل زوجها؟ هل قال أراحت واستراحت؟

لا والله لقد قال ماتت التى كان يرزقنى الله من أجلها فهى الرزق والبركة.

ما أجملها من قصة لم أتحرى عنها فى أى مصدر ولكنى أحبها، لأن المرأة تقوم فى عصر امتلأ بالفتن ولنصبر على النساء فإن الأنبياء صبروا ولنرجع إلى التاريخ موضوعنا ولننظر إلى أخبار امرأة نوح وامرأة لوط.

أولا : ابن نوح: ـ كان ابن زنا:

بالطبع هذا العنوان غير حقيقى ولكن للأسف وجدته فى كتب كثيرة لذلك أردت أن أرد على هذا العنوان ولكن قبل الرد سأذكر بعض ما قيل خصوصا أنهم أوردوا بعض الأشياء التى توهم البعض بأنها أدلة ولنتأمل سويا ما قاله ابن الخطيب وهذا نصه:

﴿قال رب أن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق﴾ الذى وعدته لى بإنجاء أهلى وقد غاب عن نوح عليه السلام: ـ أن الأهلية المراده: ـ أهلية الدين، لا أهلية النسب وقد أشار إلى ذلك أبو فراس بقوله: ـ

كانت مودة سلمان لنا نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

يؤيد ذلك: قوله تعالى: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ بل هو منتسب إلى الكافرين، سالك مسلكهم، سائر فى طريقهم: فى مخالفتك، ومحاربتك، والكفر بما جئت به، ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أى ليس بابنك، ولا من صلبك، وإنما هو نتيجة عمل فاسد: ﴿غير صالح﴾ وهو الزنا: كما قدمنا.

هذا: وقد هال قوم من المفسرين: نسبة الزنا إلى امرأة نوح، وأنه ليس بجائز أن يحصل الزنا فى أهل بيت من بيوت الأنبياء!

وقد غاب عنهم: أن الكفر قد حصل قطعاً فى غير بيت من بيوت النبوة، ولم يقل أحد: إن الكفر: أقل جرماً من الزنا.

هذا فضلا عن أن المولى سبحانه وتعالى قد دمغ امرأة نوح، وامرأة لوط بالزنا: حيث قال ﴿وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ وقد أورد إمام المفسرين، ابن جرير الطبرى هذا المعنى بأكثر من عشر طرق: رواية معنعنة، صحيحة.

وهذا العصر: كان يتميز أيضا بفساد المرأة، وعدم قدرة الرجل على تطويعها! فهذه امرأة خير الناس - فى عصره - لم تستطع خيريته: أن تتغلب على شرورها فما بالنا بباقى القوم: من عامة الناس ودهمائهم!»[1].

هذا ما قاله الشيخ ابن الخطيب وقد رمى امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام بالزنا ولكنه لم يتحرى فى تلك المسألة، نعم هذه هى الحقيقة لأنه لو تحرى لعلم جيداً أن له ثلاثة أمور لابد أن يضعها فى الاعتبار قبل أن يصدر حكمه وهى:

الأمر الأول: - إن القرآن الكريم كتاب الله فى أرضه وقد أُحكِمَ حتى أنه لابد على دارسه أن يتأمل كل حرف فكل حرف له مدلول ومن ينظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾

يعلم جيداً أن نفى الأهلية عند الأنبياء يكون بالعمل فالنبى لا يهدى من أحب ولكن الله يهدى من يشاء ولو أراد المولى عز وجل نفى البُنوة لقال يا نوح إنه ليس إبنك وإنما النفى كان للأهلية لا للبنوة وذلك لأن نوح عليه السلام نادى ربُ العزة قائلا: ﴿رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[2].

أى أن ابنى من ضمن أهلى الذين يقع عليهم الحماية والرعاية منى إلى ماشابه ذلك فينبأه الله إن الأهلية تسقط عند الكفر ويصير الولد كعامة الناس وبالطبع لم يخلق الله وعده لأن وعد الله لنوح: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ وهذا دلالة على أنه لا يوجد فى التشريع الإلهى ولا فى المحكمة السماوية واسطة أو ما يطلقون عليه فى عصرنا (ظهر يتكأ المرء عليه) لأن الله عدلٌ فى حكمه

---

(١) هذه القصة والتعليق منقولان من كتاب «المرأة فى شتى العصور من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن مالها وما عليها» لابن الخطيب صـ١٦ وقد راعيت فى النقل أن أنقل نقلاً دقيقا لأن هذا الكلام غير صحيح وأسألك الله التوفيق فى الرد الصحيح المدعم بالأدلة على هذا الكلام الذى لا يُعد به فى ميادين العلم والله الموفق.

(٢) هود: ٤٥.

وأصل أحكامه الرحمة لعباده.

الأمر الثانى: الخيانة لها أكثر من باب فمثلاً عندما أجد أمرأة تنقل أخبار بلدى إلى بلد أخرى عدوة فأقول لها يا خائنة هل قصد بذلك الزنا.

هذا والله بالطبع كلامٌ لا يعقل فالخيانة قد تكون للبلاد أو فى الدين أو فى العمل أو فى الآداب فمن أعلم ذلك الرجل أن المقصود بقول الحق تبارك وتعالى ﴿فخانتاهما﴾ الخيانة الزوجية وهى الزنا.

والرد على تلك الأباطيل بالنسبة للخيانة ما ساقه العلامة القرطبى فى تفسيره حيث قال: ﴿فخانتاهما﴾ يعنى فى الدين لا فى الفراش وذلك أن هذه - يعنى امرأة نوح - كانت تخبر الناس أنه مجنون وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: - نعم.

قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التنور، فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور، فهذه خيانتها، وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف [1].

فهذه هى معنى الخيانة فى هذا الباب ﴿فخانتاهما﴾ وأما من نادى بأن الخيانة خيانة زوجية فقد أخطأ ولم يرتكن إلى دليل.

اللهم إن كان دليله فهم خاطئ مثله.

الأمر الثالث: - يقول ابن الخطيب إن الكفر قد حصل قطعاً فى غير بيت من بيوت النبوة، ولم يقل أحد: إن الكفر: أقل جرما من الزنا، وبالطبع هذا إسنادٌ ضعيف وقول يضرب به عرض الحائط لأن الكافر لا يشترط فيه أبداً أن يكون زانياً شاربا للخمر يفعل من المنكرات ما يفعله غيره من الكفر .

واستدلالى أن أبو طالب عم رسول الله ﷺ كان واصلاً لرحمه واقفا بجوار المصطفى ﷺ.

---

(١) انظر تفسير القرطبى الجامع للأحكام: ٤/ ٣٣٦٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٥٤٥، ٥٤٦ هذا وأغلب شواهدى كانت من هذين المرجعين ولكنى جمعت الكلام وألفت بينه فلم أرد أن أذكر مراجع ولكن من أراد الرجوع فليرجع إلى هذين المرجعين بالإضافة إلى مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٩٤، ٣٢٢، ٤٥٤ وأسأل الله العلم القدير أن أكون قد جمعت جمعا طيبا دون إخلال لهؤلاء الرجال الثقات

فهل معنى أنه كافر أنه يكون قاطعاً للرحم، وهل الكفر الأصل فيه جمع المعاصى؟

بالطبع فالكفر هو ستر الحق أى ارتداء ذى الباطل بالاعتقاد أو بالعمل أو بكلاهما ومعنى هذا أنه من الممكن جداً بل ومن المُشاهد أيضا أن هناك كفره يفعلون جميع أنواع البر ولكن كفره.

وهذا إبطال لكلام ابن الخطيب. وأقول أن وقوع الكفر على امرأة من زوجات أحد الأنبياء جائزاً أما الزنا فغير جائز.

مثل ذلك مثل المرض على الأنبياء فهو جائز ولكن أعرض المُنفر للناس غير جائز.

ورحم الله ابن عباس حيث قال: ما زنت امرأة نبى قط وأختم إن شاء الله تلك المسألة قائلا: أن هناك إماماً من أئمة الحديث أصدر فتواه فى تلك المسألة وأحب أن أذكرها بنصها وهى فى تفسير القرطبى حيث يروى قائلا: - قيل لسعيد بن جُبير يقول نوح: ﴿إن إبنى من أهلى﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلا ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا ﷺ أنه ابنه، وتقول أنه ليس ابنه!.

نعم كان ابنه ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين .

ما أعظم كلام ذلك الإمام لذلك أختم بكلامه. هذه المسألة.

ثم نعود إلى رحلتنا عبر التاريخ بالرغم من أننى جمعت بين اثنين كانا فى عصرين مختلفين فقد كان نوح عليه السلام قبل حياة إبراهيم وقد كان لوط عليه السلام ابن عم لإبراهيم عليه السلام ولكنى جمعت بينهما لاشتراكهما فى قضية واحدة وهى قضية خيانة نساء النبى؟

وما أجمل لو ذكرنا قصة أود أن نستوعبها جيداً وهذه القصة حدثت فى عهد نوح عليه السلام فيا ترى ماذا حدث.

ثانيا: ما نجت أم الولد:

إن تربية المرأة للنشئ شيء خطير ينبغى فيه اختيار المرأة التى تُحكِم قلبها ومشاعرها لأن العقل يوجه إلى الصلاح والمشاعر توجه الأخلال فى بعض المواطن ولعل هذا الكلام سيكون أجمل لو قُرِن بأدلة تاريخية من تاريخ النساء والدليل هو قصة أم الولد التى كانت فى عصر سيدنا نوح عليه السلام فلننظر ماذا فعلت.

كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله عز وجل، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها، ثم جعل يعمل سفينة فيمرون فيسألونه فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى! فيقول: سوف تعلمون.

فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيت أم الصبى عليه، وكانت تحبه حباً شديداً ـ فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه؟ فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثى الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها دفعته بيدها حتى ذهب به الماء، فلو رحم الله منهم ـ أى من قوم نوح ـ أحداً لرحم أم الصبى [1].

وبالطبع هذه القصة أكبر مدلول على قولى، المرأة أو معظم النساء مشاعرها تسبق حكمها وعقلها وفكرها ولكن بالطبع ليست كل النساء كتلك المرأة التى كان ينبغى أن يكون تصرفها ذو منطق فالماء قادم للهلكة ولا نجاة إلا مع الله فى سفينة نوح ولكن المرأة ومشاعرها التى إن لم تتحكم فيها قادت الشعوب إلى الهلاك. نعم هذه هى الحقيقة فالمرأة ذات دور فعال فى انتصار الحق ولننظر سويا فى قصة ابنتى لوط عليه السلام.

ثالثاً: نهر سدوم:

قصتنا تدور عند نهر سدوم حيث تعلمنا بنتى لوط كيف يكون التصرف للحافظ على الدعوة؟ وكيف أنه على المرأة أن تفكر قبل أن تتصرف وأن تعقل قبل أن تنطلق مشاعرها فهيا بنا نرى ما كتبه كبير المؤرخين الطبرى رحمه الله.

قال الإمام الطبرى: لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا واسم الصغرى رعزيا ـ فقالوا لها: ـ يا جارية، هل من منزل؟، قالت: نعم، فمكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقت عليهم من قومها، فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم هى

---

(١) انظر تاريخ الطبرى: ١/ ٧٠، ١٧١ وهذه القصة وردت فى أكثر من مرجع فى التاريخ كالكامل والبداية والنهاية ولكن من أجمل ما ذكرت فى تاريخ الطبرى.

أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم[١].

وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا له: ، خل عنا فلنضف الرجال فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثلهم ومثل وجوههم حسنا قط، فجاءه قومه يهرعون إليه.

فلما أتوه قال لهم لوط: ـ يا قوم اتقوا الله: **﴿ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل شديد﴾** [٢]هؤلاء بناتى هن أطهر لكم مما تريدون.

فقالوا له: ـ أولم ننهك أن تضيف الرجال! **﴿لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد﴾**[٣].

فلما لم يقبلوا منه شيئا مما عرضه عليهم، قال: **﴿لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾**[٤].

يقول لوط عليه السلام: ـ لو أن لى أنصاراً ينصروننى عليكم أو عشيرة تمنعنى منكم، لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه من أضيافى!

فوجد عليه الرسل وقالوا: إن ركنك لشديد، فلما يئس لوط عليه السلام من إجابتهم إياه إلى شىء مما دعاهم إليه وضاق بهم ذرعا، قالت الرسل له حينئذ: **﴿يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم﴾**[٥].

وذُكِرَ أن لوطا لما علم أن أضيافه رسل الله، وأنها أرسلت بهلاك قومه قال لهم: ـ (اهلكوهم الساعة)[٦].

---

(١) هذه الكلمات التى خرجت من أفواه بنات لوط عليه السلام تؤكد للبشرية بأسرها أن هناك نساء ذكرها التاريخ بأنها ترتضى بالحكمة والأساس فى حكمها المشورة والعقل لا العواطف التى غالباً ما تكون مشاعر شيطانية يرق إليها القلب المريض.

(٢) هود: ٧٨.

(٣) هود : ٧٩.

(٤) هود: ٨٠.

(٥) هود: ٨١.

(٦) (اهلكوهم الساعة)هذه إحدى المقولات وقد كان من رحمة الله عز وجل أن قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم أربع شهادات، وفى قصص أخرى غير هذه قال لوط عليه السلام على قومه:(أشهد أنها لشر قرية فى الأرض عملا)وقالها أربع مرات فى أماكن متفرقة.

فلما أصبحوا - أى قوم لوط - نزل جبرائيل عليه السلام واقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء الدنيا، حتى سمع أهل السماء فباح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك حين يقول المولى عز وجل ﴿والمؤتفكة أهوى﴾[1].

ومعنى المؤتفكة أهوى: أى المنقلبة حين أهوى بها جبرائيل عليه السلام الأرض فاقتلعها بجناحيه، فمن لم يمت حين أسقط الأرض أمطر الله تعالى عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذا فى الأرض، وهو قول الحق تبارك وتعالى ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾.

ثم تتبعهم فى القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ فأهلكها الله تعالى وما حولها من المؤتفكات، وكن خمس قرى: صبعة، وصعرة، وعمرة، ودوما، وسدوم، وهى القرية العظمى، ونجى الله تعالى لوطاً ومن معه من أهله إلا امرأته كانت فيمن هلك[2].

هذه هى القصة التى كانت أكبر دليل للنساء على أنهن ذوات عقل وفكر وأنهن يأخذن بالمشورة ويرتضين حكم الآخرين ولكن يا تُرى هل ذكر التاريخ هذا وفقط؟ أم أنه ذكر أنهن كانوا أولى صبر وعزم كالأنبياء هذا ما سنعرفه جيداً إن شاء الله من قصة امرأة أيوب عليه السلام

*****

امرأة أيوب (المُفتَرَى عليها)

سمعنا من بعض المشايخ وبعض العامة وبعض أولى العلم أن امرأة أيوب عليه السلام قد خضعت وصدَّقت كلام إبليس عليه لعنة الله وأنها قد أمرت أيوب أن يسجد لإبليس حتى يُشفى من مرضه وبالطبع هذا الكلام ليس بحقيقى وأسانيده ضعيفة فإن امرأة أيوب عليه السلام كانت نعم النساء فى عصرها فقد صبرت واحتملت معه من أجل أن يظهرا معًا طاعتهما لله عز وجل.

---

(١) النجم: ٥٣.

(٢) القصة بكاملها مأخوذة من أماكن متفرقة كالبداية والنهاية وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والكامل لابن الأثير، ولكن مالجمل ماذكرت فى الطبرى(تاريخ الطبرى): ١/ ٢٨٤- ٢٩١.

ولننظر إلى ما كتبه التاريخ عن قصة أيوب وما فعلته تلك المرأة التى نَدُرت فى عصرنا الذى امتلأ بالشهوات والملذات فمعا نقرأ ونستمع بحكاية التاريخ عسى الله أن ينفع بها نساء المؤمنين.

يحكى أن أيوب عليه السلام وهو أيوب بن موص بن رغويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم قد تزوج من امرأة ذات صلاح وتقوى وهى (رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) وكانا يعيشان فى غاية السعادة عبدٌ تقى وأمة تحفظ حقوق الله وحقوق زوجها، وكان إبليس لعنه الله سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه فأدركه البغى والحسد، فسأل الله أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلطه الله على ماله دون جسده وعقله، وجمع إبليس عفاريت الشياطين وعظماءهم، وكان لأيوب البثينة من الشام كلها بما فيها بين شرقها وغربها، وكان بها ألف شاه يرعاها، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان (أتان)[1]، لكل أتان ولد، بين اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك.

فلما جمعهم إبليس ـ أى جنوده ـ، قال: ـ ماذا عندكم من القوة والمعرفة؟ فإنى قد سُلطت على مال أيوب، فهى المصيبة الفادحة والفتنة التى لا يصبر عليها الرجال.

فقال: كل من عنده قوة على إهلاك شىء فليهلكه. فأرسلهم فأهلكوا ماله كله.

وأيوب فى كل ذلك يحمد الله ولا يثنيه شىء أصيب به من ماله عن الجد فى عبادة الله تعالى والشكر له على ما أعطاه، والصبر علىٰ ما ابتلاه به، فلما رأى ذلك من أمر إبليس لعنه الله سأل الله تعالى أن يسلطه على ولده، فسلطه عليهم، ولم يجعل له سلطاناً على جسده وقلبه وعقله، فأهلك ولده كلهم ثم جاء إليه متمثلا بمعلمهم الذى كان يعلمهم الحكمة جريحا مشدوخا يرققه حتى رق أيوب فبكى، فقبض قبضه من تراب فوضعها على رأسه، فسُرَّ بذلك إبليس، واغتنمه من أيوب عليه السلام.

---

(١) أتان: أنثى الحمار يطلق عليها هذا الاسم.

ثم إن أيوب تاب واستغفر، فصعدت قرناؤه من الملائكة بتوبته فبدروا إبليس إلى الله عز وجل.

فلما لم يثن أيوب عليه السلام ما حل به من المصيبة فى ماله وولده عن عبادة ربه، والجد فى طاعته، والصبر على ما ناله، سأل الله عز وجل أن يسلطه على جسده، فسلطه على جسده خلا لسانه وقلبه وعقله فإنه لم يجعل له على ذلك منه سلطانا، فجاءه وهو ساجد، فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده، فصار من جملة أمره إلى أن أنتن جسده، فأخرجه أهل القرية من القرية إلى كناسه خارج القرية.

وكانت زوجته ترافقه، وكان قد اتبعه ثلاثة نفر على دينه، فلما رأوا ما نزل به من البلاء رفضوه واتهموه من غير أن يتركوا دينه.

ولكن الزوجة ظلت بجواره فهى أكبر مثل للزوجة الصالحة التى تكون أقرب ما يمكن من زوجها عند الابتلاء والمصيبة.

وبعد ما اشتد به المرض وتساقط لحم أيوب عليه السلام كانت زوجته تأتيه بالرماد وتفرشه تحته وتقوله له: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك؟ فيقول: قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة، فَتَجَعز امرأته من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام.

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها ـ وكانت رحمها الله ذو شعر جميل ـ بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره! فقالت: ـ خدمت به أناسا.

فلما كان الغد لم تجد أحد فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضا!

وحلف بالله لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟

فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقاً دعى وقد زاد فى دعائه أنه سمع الناس يقولون: لو كان لرب هذا فيه حاجة ما صنع به هذا.

ودعا أيوب عليه السلام قائلا: ﴿إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾[1]

(١) الأنبياء: ٨٣.

فاستجاب المولى عز وجل إلى دعائه وأنبأه ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾[1].

فضرب أيوب عليه السلام الأرض فنبع منها الماء فاغتسل وشرب وبرأ بأمر المولى عز وجل.

وجاءت امرأته ولم تعرفه فقالت: يا عبد الله، هذا المبتلى الذى كان هاهنا، لعل الكلاب ذهبت به، أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، قال: ولعل أنا أيوب.

قالت: ـ أتسخر منى يا عبد الله؟، فقال: ويحك! أنا أيوب قد رد الله على جسدى.

ولما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه فقيل له يا أيوب!

أما تشبع؟ قال :يا رب ومن يشبع من رحمتك؟

ومن رحمة الله عليه أن رد عليه الولد أيضا وجعله أيضا لا يحنث فى يمينه الذى قد سبق ووقع فيه لأن (رحمة) زوجته اعترض الشيطان يوما طريقها فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته وأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط فأنبأه الله أن يأخذ ختنا ويضربها فكأنما ضربها مائة سوط.

وبالطبع هذه هى الحقيقة وليس كما افترى عليها بعض الناس وقالوا: إنها قالت لأيوب: اسجد للشيطان.

ولقد قال عنها الإمام ابن كثير :وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضى الله عنها[2].

هذه القصة التى كتبها التاريخ قد رسمت المرأة بأعظم صفات من الإخلاص والحب والوفاء والإيمان والتقوى والصبر والاحتساب والثقة بالله.

---

(١) ص: ٤٢.

(٢) قصة امرأة أيوب عليه السلام قد تم تجميعها من مرجعين وهما تاريخ الطبرى: ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧، والبداية والنهاية لابن كثير: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٣١.

ولكن سنمضى سويا بين صفحات التاريخ لنرى وجها آخر للمرأة وهذا الوجه يتمثل فى الفتنة فالمرأة قد فتنت الأنبياء نعم هذه الحقيقة فتنت داود ومن بعده ابنه سليمان، النبى وولده قد فتنتهم المرأة.

ولكن ماهى الأحداث فانقرأ سويا وننظر بعقل وإحساس.

*****

المرأة فى عصر داود وسليمان عليهما السلام

إن المرأة لها أسلحة خاصة بها لا يمتلكها أى قائد على وجه الأرض فهى فتنة وهى مكر وخداع كذا حقيقة بعض النساء ولقد قلنا أنها فتنت الأنبياء فيا ترى كيف.

أولا: زوجة أهريا فتنت نبى الله داود:

هذا العنوان صحيح لا جدال فيه فقد بحثت عنه جيداً ووجدت أن من أسنده ورواه لم يظلم نبى الله داود وإنما روى الحق ولنرى سويا واحداً ممن ذكر ذلك وننقل عنه ما روى مكتفين به لأنه أمام المؤرخين وهو ابن جرير الطبرى.

وقد قال فى شأن قصة داود عليه السلام وفتنته:(كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوماً يقضى فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه، ويوما يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب. قال: يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى، فأعطنى مثل ما أعطيتهم وافعل بى مثل ما فعلت بهم.

فأوحى الله إليه أن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها، ابتلى إبراهيم بذبح ابنه، وابتلى إسحاق بذهاب بصره، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف، وإنك لم تبتل بشىء من ذلك.

قال: يارب ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به، وأعطنى مثل ما أعطيتهم فأوحى إليه المولى عز وجل: إنك مبتلى فاحترس.

فمكث داود عليه السلام بعد ذلك ما شاء أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل

فى صورة حمامة من ذهب، حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلى، فمد يده ليأخذه فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع فى كوه فذهب ليأخذه فطار من الكوه، فنظر: أين وقع فيبعث فى أثره، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فحانت منها التفاته فأبصرته فألقت شعرها على جسدها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبه، فسأل عنها فأُخبِرَ أن لها زوجا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا، فبعث داود عليه السلام إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أهريا إلى عدو كذا وكذا، فبعثه صاحب المسلحة، فَفُتِح له.

فكتب داود عليه السلام عندما عَلِمَ أن أهريا قد عاد منتصراً أن يا صاحب المسلحة ابعثه إلى عدو كذا وكذا، وكان العدو فى تلك المدة أشدُ بأساً ولكن فتح الله لأهريا أيضا.

فكتب داود عليه السلام بعد أن عَلِمَ ذلك إلى صاحب المسلحه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا وهنا كانت النهاية لأهريا فقتل فى الحرب.

وتزوج داود امرأة أهريا، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيراً حتى بعث الله ملكين فى صورة إنسين فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه فى يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه.

فتسورا عليه المحراب، فما شعر وهو يصلى إذا هو بهما بين يديه جالسين، ففزع منهما، فقالا: لا تخف إنما نحن: **﴿خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط﴾**(1).

ومعنى لا تشطط أى لا تحف **﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾** أى إلى عدل القضاء.

فقال: ـ قصا على قصتكما.

فقال أحدهما: **﴿إن هذا له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة﴾** فهو يريد أن يأخذ نعجتى، فيكمل بها نعاجه مائة.

فقال للآخر: ما تقول؟

فقال الآخر: إن لى تسعاً وتسعين نعجة، ولأخى هذا نعجة واحدة فأنا أريد

---

(1) ص: ٢٢.

أن آخذها منه، فأكمل بها نعاجي مائة.

فقال داود عليه السلام: وهو كاره.

قال الرجل: وهو كاره.

فقال داود عليه السلام: إذا لا ندعك وذاك.

فقال الرجل: ما أنت على ذلك بقادر!

فقال داود عليه السلام: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد ذلك ضربنا منك هذا وهذا «يقصد طرف الأنف والجبهة».

فقال الرجل: يا داود، أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قُتِلَ، وتزوجت امرأته وسكت الرجل فنظر داود عليه السلام فلم يجد أحد

فعرف ما قد وقع فيه، وما ابتلى به، فخر ساجداً فبكى، ومكث يبكى وهو ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة لابد منها ثم يقع ساجداً يبكى، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه.

فأوحى المولى عز وجل إليه بعد أربعين يوما: يا داود، ارفع رأسك قد غفرت لك، فقال داود عليه السلام: يارب كيف أعلم أنك قد غفرت لى وأنت حكم عدل لا تحيف فى القضاء.

إذا جاء أهريا يوم القيامة أخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تَشْخُب أوداجه دماً فى قبل عرشك، يقول: يارب؟ سل هذا فيم قتلنى!

فأوحى الله عز وجل إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا فأستوهبك منه، فيهبك لى فأثيبه بذلك الجنة. فقال داود عليه السلام: رب الآن علمت أنك قد غفرت لى.

وما استطاع داود عليه السلام أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قبض مات [1]

---

(١) القصه بكاملها فى كتاب تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٤٥٩ـ ٤٦٣ وكان هناك عدد من الاعتراضات على تلك القصه إلا أن صحتها ثابتة وقد دُعمت من مصادر عديدة وأسانيد»

هذه هى القصة التى تُبين وتوضع أسلحة المرأة الخفية وبيان أن أشد ابتلاء ومحة هو الابتلاء بالنساء فالمرأة رق أمامها النبى فما بالكم بالفرد العادى المجرد فأسأل الله أن يجعل فى قلوب النساء الإيمان وفى قلوب الرجال الإيمان فلا ينظروا ولا يروا الآكل ما هو رحلٌ لهم وبارك الله فى رجل دعته امرأة ذات مال وجمال فقال: إنى أخاف الله.

ولكن يا ترى هل تعلم الابن من أبيه هذا هو ما سنعرفه إن شاء الله من خلال قصة سليمان بن داود عليهما السلام.

ثانيا: بنت مالك البحور فتنت نبى الله سليمان:

لاعجب فى أن يُفتَن الابن كما فُتِن أبوه من قبل خصوصاً وان بعض الروايات تُأكد أن نبى الله سليمان كان ابن زوجة أهريا سابقاً وداود عليه السلام أنجب منها سليمان عليه السلام.

ولكن يا ترى كيف كانت فتنة الابن نبى الله سليمان فلنقرأ سويا ما ذكره الإمام ابن جرير فى كتابه تاريخ الأمم والملوك.

يقول ابن جرير سمع سليمان بمدينة فى جزيرة من جزائر البحر، يقال لها «صيدون»، بها ملك عظيم السلطان لم يكن للناس إليه سبيلا لمكانه فى البحر وكان الله قد أتى سليمان فى ملكه سلطاناً لا يمتنع منه شىء فى بر ولا بحر، إنما يركب إليه إذا ركب على الريح، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستغاء ما فيها، وأصاب فيما أصاب ابنة لذلك الملك لم ير مثلها حسناً وجمالاً، فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء وقله ثقة، وأحبها حباً لم يحبه شيئا من نسائه، ووقعت نفسه عليها، فكانت على منزلتها عنده لا يذهب حُزنها، ولا يرقأ دمعها «أى لا ينقطع»، فقال لها نبى الله سليمان لما رأى ما بها وهو يشق عليه من ذلك ما يرى:ـ ويحك ما هذا الحزن الذى لا يذهب، والدمع الذى لا يرقأ!

= كثيرة ولننظر إلى بعض ما ذكره القرطبى فى كتاب التفسير المشهور بتفسير الأحكام: ٨/٥٨٢١ـ ٥٨٢٤ وفيه بيان لرجحان ما ذُكر وكفى أن ابن جرير قد ذكرها على أنها صحيحه وهو كبير المؤرخين وأشدهم حفظاً.

قالت: إن أبى أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه، فيحزننى ذلك، قال:ـ فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله.

قالت:ـ إن ذلك لكذلك «أى ما تقوله صدق وحقيقه»، ولكنى إذا ذكرته «أى والدى ـ أصابنى ما قد ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا صوره أبى فى دارى التى أنا فيها، أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يُذهبَ ذلك حزنى وأن يُسَلى عنى بعض ما أجده فى نفسى، فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فقال: مثلوا لها صورة أبيها فى دارها حتى ما تنكر منه شيئا، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها نفسه،إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه لها فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التى كان يلبس مثل ما كان يكون فيه من هيئه، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو فى ولائدها حتى تسجد له ويسجدون له كما كانت تصنع به فى ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك، لا يعلم سليمان عليه السلام بشىء من ذلك أربعين صباحا، وبلغ (آصف بن برخيا)[1].

وكان صديقاً، وكان لا يُرد عن أبواب سليمان أى ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً كان سليمان أو غائباً ـ فأتاه آصف فقال: يا نبى الله، كَبُرَت سنى، ودق عظمى، ونفد عمرى وقد حان منى ذهاب[2] وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله، وأثنى عليهم بعلمى فيهم، وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل فجمع له سليمان عليه السلام الناس فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله، فأثنى على كل نبى بما فيه وذكر ما فضله الله به، حتى انتهى إلى سليمان وذكره.

فقال: ما كان أحلمك فى صغرك، وأورعك فى صغرك، وأفضلك فى صغرك، وأحكم أمرك فى صغرك، وأبعدك من كل ما يكره فى صغرك!

---

(١) آصف بن برخيا:ـ هو عالم زمانه وهو الذى أخبر عنه القرآن فقد قال المولى عز وجل فى ذكره ﴿أنا آتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ وذلك لانه يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى بها أجاب: ويقول العلامة القرطبى: ربما دعى باسم الله الأعظم وهو يا حى يا قيوم وهو فى لغتهم (أهيا شراهيا) هذا ما ذكرته الآثار عن آصف بن برخيا ومن أراد الاطلاع فلينظر إلى الجامع للأحكام للقرطبى: ٧/ ٥٠٨٧ .

(٢) حان من ذهاب: ـ أى اقتربت من الموت.

ثم انصرف آصف فوجد سليمان عليه السلام فى نفسه حتى ملأه غضبا، فلما دخل سليمان عليه السلام داره أرسل إلى آصف يستدعيه وقال له: يا آصف، ذكرت من مضى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيرا فى كل زمانهم، وعلى كل حاله من أمرهم، فلما ذكرتنى جعلت تثنى علىّ بخير فى صغرى، وسكت عما سوى ذلك من أمرى فى كبرى، فما الذى أحدثت فى آخر أمرى؟ قال آصف: (إن غير الله ليعبد فى دارك منذ أربعين صباحاً فى هوى امرأة)[1].

فقال سليمان عليه السلام: فى دارى!، فقال آصف: فى دارك قال، نبى الله سليمان: إنا لله وإنا إليه راجعون! لقد عرفت أنك ما قلت إلا عن شىء بلغك، ثم رجع سليمان عليه السلام إلى داره فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائدها. ثم أمر بثياب الطهره فأُتِىَ بها «وهى ثياب لا يغزلها إلا الأبكار، ولا ينسجها إلا الأبكار ولا يغسلها إلا الأبكار، ولا تمسها امرأة قد رأت الدم» فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد ففرش له، ثم أقبل تائبا إلى الله حتى جلس على ذلك الرماد، فتمعك فيه بثيابه تذللا لله عز وجل وتضرعا إليه يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره، ويقول فيما يقول:ـ «رب ماذا ببلائك عند آل داود أن يعبدوا غيرك، وأن يقروا فى دورهم وأهاليهم عبادة غيرك»! فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى، يبكى إلى الله ويتضرع إليه ويستغفره، ثم رجع إلى داره ـ وكانت أم ولد له يقال لها: ـ الأمينة، كان إذا دخل مذهبه، أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه فى خاتمه، فوضعة يوماً من تلك الأيام عندها كما كان يضعه ثم دخل مذهبه، فأتاها الشيطان صاحب البحر «وكان اسمه صخراً» فى صورة سليمان لا تنكر منه شيئا فقال لها: خاتمى يا أمينة فناولته إياه، فجعله فى يده، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وخرج سليمان فأتى الأمينه، وقد غُيرت حالته وهيئته عند كل من رآه، فقال:ـ يا أمينة، خاتمى! فقالت:ـ ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، فقالت: كذبت، لست بسليمان ابن داود وقد جاء سليمان فأخذ خاتمه، وهو ذاك جالس على سريره فى ملكه،

(١) هذا ما فعلته المرأه بنت ملك البحور فى سيدنا سليمان عليه السلام.

فعرف سليمان عليه السلام أن خطيئته قد أدركته، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بنى إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود، فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: أنظروا إلى هذا المجنون، أى شىء يقول! يزعم أنه سليمان ابن داود.

فلما رأى سليمان عليه السلام ذلك عمد «أى ذهب» إلى البحر، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق، فيعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها، فمكث بذلك اربعين صباحاً، عدد ما عُبِدَ ذلك الوثن فى داره، فأنكر آصف بن برخيا وعظماء بنى إسرائيل حكم عدو الله الشيطان فى تلك الاربعين صباحاً، فقال آصف: يا معشر بنى إسرائيل، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت! قالوا: نعم، قال: أمهلونى حتى أدخل على نسائه فاسألهن: ، هل أنكرن منه فى خاصة أمره ما أنكرنا فى عامة أمر الناس وعلانيته؟

فدخل على نسائه فقال: ويحكن! هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: ـ أشده، ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! إن هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج إلى بنى إسرائيل، فقال: ما فى الخاصة أعظم مما فى العامة.

فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان من مجلسه، ثم مر بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، وبصر بعض الصيادين فأخذها وقد عمل له سليمان عليه السلام صدر يومه ذلك، حتى إذا كان العشى أعطاه سمكته، فأعطى السمكه التى أخذت الخاتم، ثم خرج سليمان بسمكتيه فباع التى ليس فى بطنها الخاتم بالأرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه فى جوفها، فأخذه فجعله فى يده ووقع ساجداً لله، وعكف عليه الطير والجن وأقبل عليه الإنس وعرف أن الذى دخل عليه لما كان أحدث فى داره.

فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبة، وأمر الشياطين فقال: ائتونى به، فطلبته الشياطين حتى أخذوه، فأتى به، فجاب «أى خرق» له صخره فادخله فيها ثم سد عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقذف فى

البحر)[1].

هذه هى القصة بكاملها ترسم لنا منهاجاً ينبغى أن نسير عليه وهو إن المرأة ليست بجمالها فإن الجمال إن كان ذو طلب فالدين أولى منه طلباً.

وهذا هو شأن نبى الله سليمان أحاطه العناء واشتد به الحال أربعين يوماً ضربية أربعين يوماً كان سببها أنه فُتِن بجمال امرأة، وانشغل عن نسائه بها ولكن يا تُرى هل هناك صفات أخرى تُعجب الرجال غير الجمال؟ والإجابه إن كان الرجل ذو عقل فتعجبه المرأة التى إن غاب عنها حفظته فى ماله وأهله وعرضه وإن أقبل عليها أسرته بهيئتها وبشاشتها وحُسن مجلسها.

وإن كان من أرباب الجهل فيعجبه المرأة لجمال زائل لا محالة إن لم يأكله الكبر والهرم سيأكله الدود والتراب. ولننتقل سويا إن شاء الله إلى موطن آخر للمرأة لنرى سلاحاً من أسلحتها التى لا تحصى ولا تعد فالمرأة لها الحيلة والمكر والخداع والدهاء والجمال والفتنة ولكن يا ترى هل لها سلاح العقل؟

إن سلاح العقل هو السلاح الوحيد الذى يُمتلك ولكن إن لم يُحافظ عليه كان بلا قيمة وبلا نفع والمرأه لها مواطن يجب أن نشهد لها أنها تمتلك هذا السلاح ولكن حديثنا ليس عن كل النساء فى سلاح العقل لأننا سنختار بنت الجنية التى امتلكت جسد الإنسية وعقل الجنية فلنمض سريعا ونرى ما كتبه التاريخ.

ثالثا :بلقمه بنت الجنية:

إن التاريخ سيظل يذكر تلك المرأة التى استطاعت برجاحة عقلها أن تحكم أرض اليمن وأن يكون تحت يدها أكثر من اثنى عشر ألف قيل «والقيل هو القائد فى لغة تلك البلد» وتحت يد كل قيل ألوف كثيرة من الجنود التى وصل بها الأمر ان حكمت كل ما جاورها من البلدان ولكن يا ترى هل كانت بلقيس بنت إنس أم بنت حسن؟

---

(١) القصة بنصها فى كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى:١/٤٧٦ - ٤٧٩ وفى القصة بيان كامل لذنب سليمان عليه السلام حيث اهتم بجمال المرأة ففتن بها، ولكنه حُسب على ذلك أربعين يوما بأربعين يوما والله أعلم

والإجابة: فلنسمع ولنقرأ قصة تلك المرأة التى ينبغى أن نتعلم منها ونستفيد نعم نتعلم لأنها امرأة لابد أن يذكرها التاريخ «يحكى أنه فى عصر ما قبل سليمان عليه السلام كان يوجد ملك فى سبأ وهذا الملك لا يترك امرأة سليمة بل يغتصبها وهنا امتنع وزيره وهو (شراحيل) عن الزواج لأن شراحيل كان غيوراً ويخشى أن يتزوج فيحدث لامرأته ما يحدث لباقى النساء ولكن فى ذات يوم من الأيام خرج شراحيل مع رجل فى سفر وبينما كانا فى الطريق إذ قال له الرجل يا شراحيل أمتزوج أنت؟ فقال شراحيل: لا، فقال له الرجل: هل تريد الزواج؟ فقال شراحيل: أنا رجل غيور والملك فى أرضى يفعل كذا وكذا، فقال له الرجل: إن تزوجت ابنتى فلن يصل إليها أحد فإنا قوم من الجن لا يصل إلينا أحد، فتزوج شراحيل من «ريحانة بنت السكن» الجنية التى أنجبت له «بلقمة أو تلقمة» أو الاسم الشائع لتلك المرأة «بلقيس» وهى المرأة التى بلغت من ذكائها أن تحكم الملوك والسلاطين ولكن كيف حكمت؟ والإجابه عندما أنجبتها ريحانة أمها خاف عليها أبوها فأودعها فى قصر بعيد لا يصل إليه هذا السلطان.

وفى ذات يوم من الأيام وصل إلى السلطان أمر بلقيس فقال إلى وزيره شراحيل: يا شراحيل أعندك بنت وتخفيها على، فامتنع عن الإجابة، فدفع به إلى السجن وأمر خدامه أن يأتوا بتلك الفتاة، وعندما وصل الخدام إلى بلقيس رأوا كل خدامه من بنات الجان فرهبوا أمرها فقالت لهم: ارجعوا إلى ملككم فقولوا له:ـ إذا إراد الملك عزيزة أتاها، وإن أراد جاريه أتته، وأنا عزيزة يأتى إلىّ ولا أذهب إلى أحد.

وعندما رجع الخدام إلى الملك وقصوا عليه ما حدث أعجب بها وأمر جنوده فرحلوا إليها وعندما أتوها أراد الملك أن يدخل هو والجنود فقالت له بلقيس: دع الجنود فى الخارج فإنك فى دار عزيزة غالية لا فى دار جارية رخيصة فأمر الجنود أن يقفوا فى الخارج فأدخلته بلقيس ودفعت إليه بالخمر فظل يشرب فى الخمر حتى فقد عقله وأخذ يترنح يمينا وشمالا فأقبلت عليه بلقيس فقطعت رقبته ثم ألقت برأسه إلى جنوده وقالت لهم: من يرتضى بحكم بلقيس؟

فارتضوا جميعا بحكم تلك المرأة التى فعلت ما لم يجرئ عليه الرجال.

وزاد نفوذ بلقيس وحكمت الملوك ولكن لحكمة لا يعلمها إلا الله لم يصل خبرها إلى سليمان ولا خبر سليمان إليها إلا بعد زمن من حكمها وعبادتها للشمس.

والسؤال الآن: كيف وصل الخبر إلى نبى الله سليمان عليه السلام؟ وصل الخبر إلى نبى الله عن طريق الهدهد حيث يحكى أن سليمان عليه السلام قد اشتغل بالنزول فارتفع الهدهد نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها، فأبصر يمينا وشمالا، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد، وكان اسم ذلك الهدهد عفير.

فقال عفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟، فقال يعفور: أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود، فقال عفير: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وما بين السماء والأرض فمن أين أنت؟ فقال عفير: من هذه البلاد، ملكها امرأة يقال لها بلقيس، تحت يدها اثنا عشر ألف قيل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذرارى، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، ورجع إلى سليمان عليه السلام وقت العصر، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده وكانوا على غير ماء، فقال لوزير الطير: هذا موضع من؟ قال: يا نبى الله هذا موضع الهدهد قال: وأين ذهب، قال: لا أدرى أصلح الله الملك، فغضب سليمان عليه السلام وقال: ﴿لأعذبنه عذابا شديدا﴾ الآية.

ثم دعا بالعقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأساً فقال: - ما تريد يا نبى الله، فقال: على بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم، فإذاً هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن فأنقض نحوه وأنشب فيه مخلبه.

فقال له الهدهد: أسألك بالله الذى أقدرك على وقواك إلا ما رحمتنى فقال له: الويل لك، وثكلتك أمك! إن نبى الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم أتى به فاستقبلته النور وسائر عساكر الطير وقالوا الويل لك، لقد توعدك نبى الله، فقال الهدهد: - وما قدرى وم أنا! أما استثنى؟ قالوا: بلى! إنه قال: ﴿أوليأتينى بسلطان مبين﴾ ثم دخل على سليمان عليه السلام فرفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام فقال له سليمان: أين كنت عن خدمتك

ومكانك؟ لأعذبنك عذاباً شديداً أو لأذبحنك، فقال له الهدهد:ـ يا نبي الله! اذكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفى بين يديك فاقشعر جلد سليمان وارتعد وعفا عنه «وفى روايه أنه عفا عنه لأنه كان باراً بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقهما» فسأله سليمان عليه السلام: وما أخرك عنا؟، فحكى له الهدهد أمر بلقيس التى تولت أمر قومها ومالها من سلطان وعرش عظيم، فقال سليمان عليه السلام: سأنظر فى أمرك وأرى إن كنت صادقا أم أنك من الكاذبين، ولما علم سليمان عليه السلام صدق الهدهد كتب كتاباً قال فيه: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾.

وذهب الهدهد بالكتاب وألقاه إلى بلقيس فنظرت وتعجبت وعندما قرأته قالت: ﴿يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم﴾ ووصفته بذلك قيل لعظم أمر صاحب الكتاب حيث طبع سليمان بخاتمه على الكتاب أو لأن الرجل الذى يبعث بكتابه عن طريق هدهد ما هو إلا رجل ذو قوه وعظمه فوصفت الكتاب بصاحبه.

وقرأته على قومها بأكمله ثم نظرت إليهم وهنا بدأت بنت الجنية فى إبراز ذكائها.

*** ذكاء بنت الجنية:**

أردت أن أستقطع تلك الجمله كعنوان جانبى احتراما لصاحبة هذا العنوان فقد أظهرت بلقيس ذكاء ما بعده ذكاء عجز عنه الرجال، الإنس منهم والجان، انظروا ماذا فعلت؟

قالت: ـ ﴿يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى﴾ طرحت القضية للمناقشة والرأى الصواب هو من أجمع عليه الناس فقالوا: ـ نحن أولوا قوة وأولوا بأس الرجل منا بعشرة ولنا من الفرسان التى تنوخ أمامها الجياد قبل الفرسان.

فقالت: إنى لى رأياً آخر

فقالوا: وما هو؟

قالت: إن الحرب أساسها الهدف فلندفع إلى سليمان هذا هديه من أجمل ما عندنا وأجوده فإذا انبهر بها وأعلن رضاؤه قاتلناه فما هو إلا طامع فى ملك ومال ومثل هؤلاء أمرهم علينا يسير أما إذا امتنع ورد الهدية فما هو إلا رسول من عند

الله يقاتل فى عقيدة وإيمان، ومثل هؤلاء النصر دوماً حليفهم فهم امتلكوا قوة الإيمان ومضوا على عقيدة وإصرار، وينبغى إن كانوا كذلك أن نتبعهم، فلا خيار لنا.

فقالوا: - نعم الرأى هو،فأتت بلقيس بمئة وصيفة من النساء ألبستهم زى الرجال وقالت لهم: أن تحدثتم مع سليمان فتحدثوا بغلظة كالرجال ثم أتت بمئة وصيف من الرجال وألبستهم زى النساء وقالت: إن تحدثتم فتحدثوا بلين كالنساء، وأتت بلبنات من ذهب هدية وكذا من الفضة وعمدت إلى حُقَّة من ذهب فجعلت فيها درة يتيمة غير منقوبة وخرزة معوجة النقب وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه:

إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنى بما فى الحقة وعرفنى رأس العصا من أسفلها، وانقب الدرة نقبا مستوياً، وأدخل خيط الخرزة، واملأ القدح ماء سقاء ليس من الأرض ولا من السماء.

وقالت للرسول (بياناً لمدى ذكائها ومدى حكمته) إن نظر إليك نظر مغضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاً لطيفاً فاعلم أنه نبى مرسل فتفهم قوله ورد الجواب.

فانطلق الرسول من عند بلقيس إلى سليمان عليه السلام، فوجد العجب العجاب لأن سليمان عليه السلام قد أعد ما هو أجمل وأعظم فقد كان قصر سليمان عليه السلام من لبنات الذهب وأعد لهم أربعة الآف كرسى من الذهب قد أجلس عليها العلماء والحكماء فاستحقر الرسول ما أتى به من لبنات الذهب أمام عظمة قصر سليمان عليه السلام ونظر إليه فوجده بشاً فأعطاه الكتاب فأخبره من الوصائف ومن الوصفات وأخبره ما بداخل الحقة، فقال له الرسول: صدقت فانقب الدرة وأدخل الخيط فى الخرز، فسأل سليمان عليه السلام الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا، فقال للشياطين: - ما الرأى فيها؟ فقالوا: ترسل إلى «الأرضة»[1] فجاءت الأرضة فأخذت شعره فى فمها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: - ما حاجتك؟، قالت: - يصير رزقى فى الشجر، فقال لها: - لك ذلك.

ثم قال سليمان عليه السلام: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة

(١) الأرضة: حيوان يشبه النمل ويأكل الخشب.

بيضاء: أنا لها يا نبى الله، فأخذت الدودة الخيط فى فمها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان عليه السلام: ما حاجتك؟، قالت: تجعل رزقى فى الفواكه، فقال: لك ذلك، وقال سليمان عليه السلام: القوا العصاة فما وقع منها على الأرض أولاً كان أصلها «أى رأس العصاة»، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها «وهذا هو الماء السقاء الذى ليس من أرض ولا من السماء وهو عرق الخيل».

ورد سليمان عليه السلام الهدية ولم يقبها وعندما رجع الرسول إلى بلقيس وأخبرها بما حدث قالت: لئن لم نتبع ذلك الرجل لنكونن من الجاهلين، وأرسلت إليه أنها قادمة فأخذت الجن تخبر سليمان عليه السلام أن بلقيس بنت جنية وقدمها تشبه قدم الماعز، فقال سليمان عليه السلام للجن والشياطين: أعدوا لى شيئا إذا رأته كشفت عن ساقيها فيا ترى ما حكاية قدم بلقيس؟

*** فتنه سليمان بساق بلقيس الجميلة:**

سمعت من بعض من ادعى العلم أن سليمان أعد ما أعد وعندما رأى قدم بلقيس فُتِن بها لجمالها.

ولكن هذا غير صحيح والحقيقة أن سليمان عليه السلام عندما سمع عن قدم بلقيس التى تشبه الماعز وصى الجن بصنع شىء يجعله يرى ساقها فصنعوا له فرشا من زجاج فلما أتت بلقيس ورأت الصرح كشفت عن ساقيها، فنظر سليمان عليه السلام ثم تنحى ببصره وذلك «لأن قدم بلقيس كانت تمتلأ بالشعر» وذلك مما جعل سليمان عليه السلام يلتفت مع كراهة النظر، ونظر إلى الإنس فقال لهم: هل عندكم لهذا الشعر من حل؟ فقالوا: الموسى، فقال سليمان عليه السلام: الموسى تقطع قدمها، فنظر إلى الجن وقال لهم: هل عندكم من شىء؟ قالوا: الموسى.

فتنحى ونظر إلى الشياطين، فقال لهم: هل عندكم من شىء؟ فقالوا: الموسى، فقال: ـ تقطع قدمها فأوجدوا لى حلاً آخر!

فصنعوا له النورة[1].

فلما وضعتها على قدمها صارت من أجمل ساق فى النساء فأنكحها سليمان

(١) النورة: مركب يوضع على القدم فيأكل الشعر.

عليه السلام بعدما أسلمت وهذا هو الصحيح الوارد لأن هناك من يقول بأنها تزوجت بملك عظيم من ملوك اليمن ولكن ورد أن حمير حفروا مقبرة الملوك فوجدوا فيها قبراً معقودا فيه امرأه عليها حلل منسوجة بالذهب، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب:

يأيها الأقوام عُوجُوا معًا	وارْبِعُوا فى مَقْبرِى العِيساً
لتعلموا أنّى تلك التى	قد كنتُ أُدْعَى الدهرَ بَلْقِيسَا
شَيَّدْ قصر المُلْكِ فى حِمْيَر	قَوْمِى وقِدْماً كان مأنُوسا
وكنتُ فى مُلكى وتدبيره	أرغمُ فى الله المَعَاطِيسَا
بَعْلِى سليمان النبىُّ الذى	قد كان للتوراة درِّيسَا
وسخَّر الريحُ له مركبًا	تهبُّ أحياناً رَوَامِيسَا
مع ابن داودَ النبى الذى	قدَّسه الرحمنُ تقْدِيسَا[٢]

وهذه هى نهاية قصه بلقيس بنت ريحانة الجنية التى حكمت الملوك وذاع صنيتها فى التاريخ حتى أنى أرى أنه لابد من التفتيش وراءها والتمعن فى أفعالها فهى الذكاء الكامن فى أسلحة المرأة الضعيفة البنيان.

وبعد قصة سليمان كانت المرأة على ثلاثة أصناف صنف ليس ذو رأى ولا شورى أو مشورى وهم نساء العرب فى مكة المكرمة، وصنف ذو رأى وسلطه وهن نساء اليهود وصنف يشارك بالرأى والمشورة وهن نساء الأنصار فى المصائر والمدائن فى الروم وما جاورها.

وبالطبع سيكون حديثنا عن نساء العرب؛ لأن التاريخ توجه إليهم فمن العرب خرج الشعاع الذى أضاء للكون طريق الهداية والرشاد وأصلح الأمم وحكم الأرض بأسرها وخضعت الإنس والجن لهذا النور؛ لأنه نور من عند الله يبلغه محمد بن عبد الله عليه أفضل السلام وأزكى التسليمات فلنسير سويا إلى «النساء أثناء البعثة المحمدية».

---

(١) وهذه هى نهاية القصة وقد تم تجميعها ونقلها بالمعنى لا بالنص من تفسير القرطبى: ٧/٥٠٧٦ ـ ٥٠٩٥، وتاريخ الطبرى:ـ ١/ ؟،والبداية والنهاية ٢/ ؟

النساء أثناء البعثة المحمدية

إن تاريخ المرأة قد امتلأ بالأعاجيب فالمرأة طموحة ذات قدرات خاصة لها من الفنون وأساليب الفتن ما نازعت به الشياطين ولكن يا تُرى هل يمتلأ التاريخ ويحمل للمرأة هذا وفقط؟

والإجابة: بالطبع لا فقد سبق أن ذكرنا بلقيس التى أسلمت مع نبى الله سليمان ومن قبلها سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وغير ذلك الكثير والكثير.

ولكن يتوقف التاريخ قليلا ويسير بطيئا عند النساء فى عصر النبى ﷺ حيث كانت المرأة فى ميدان لم تُشَاهد فيه من قبل ميدان «الحرية الحقيقية» ويسأل الجميع ما القصد بالحرية الحقيقية؟

والإجابة إن المرأة قد خلعت رداء الإسلام فى عصرنا هذا «إلا من رحم ربى - ظناً منها أن هذه هى الحرية المسألة مسألة لباس فبمجرد أن تخلعه تكون تلك هى الحريه ونسيت أو بمعنى صحيح تناست أن الحرية هى حرية الفكر والمشوره لا حريه اللباس وهى «الحرية الزائفة» فالمرأة تظن أنها عندما ترتدى زى الغرب العفنْ تكون بذلك قد تحررت أو عندما تتطاول فى الحديث وتعلن البغى على الزوج تكون بذلك قد تحررت إن كانت هذه هى الحرية فالحبس أفضل.

وإنما الحرية الحقيقية فى منظور أهل العلم هى الحرية التى أتاحها الإسلام للمرأة حيث شاركت بفكرها وكانت عوناً لزوجها وبيتها ومُشَارِكةً فى ميادين الدعوة والرقى لا فى ميادين الجهل وبيوت الأزياء العفنة ولننظر سويا إلى المرأة فى زى الحريهة الحقيقية «الحرية التى كتبها الإسلام» فكانت بها المرأة ذات دور وأصبحت «امرأة ذات تاريخ» يُذكر ويُعَلم لأنه الأفضل رغم أنف المعترضين على ذلك ولنتتبع الإحداث التى أنقلها لكم بفضل المولى عز وجل عن ستة من النساء عاشوا فى عهد رسول الله ﷺ وشاركوا فى ميدان الدعوة وهن سته نسوة «خديجة، فاطمة، عائشة، أسماء، أم سليم، أم عمارة» وهن من تمتعن بالحرية وكُتِبَ لهن صفحات خالدة فى التاريخ.

أولا :خديجه بنت خويلد:

قال أبو هريرة رضى الله عنه: أتى جبريل النبى ﷺ فقال: «**يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدَامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**»[1].

هذا الحديث يبين مدى منزلة خديجة رضى الله عنها، ونسبها هو من ناحية الأب:ـ هى خديجه بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر تجتمع مع رسول الله ﷺ فى الأجداد والجد هو «قصى» فقد كان من أجداد رسول الله ﷺ.

ونسبها من ناحية الأم: هى خديجة بنت فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحه بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر[2].

وبعد أن ذكرنا نسبها نقسم قصتها إلى ثلاث مراحل وهى:

المرحله الأولى:

خديجة التاجرة:

كانت خديجة رضى الله عنها تحت ابنى هالة بن زرارة التميمى (أى زوجته) ثم مات وتزوجت بعده عتيق بن عابد المخزومى ومات أيضا وهنا انشغلت خديجة رضى الله عنها بالتجارة فكانت تختار الرجال وتستأجر الرجل فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم، واشتهرت خديجة بين أهل التجارة والمال حتى أنها أصبحت حلم أى رجل حتى يتزوج منها ولم تكن ذات مال وفقط ولكنها كانت تلقب بـ (الطاهرة) لما فى أخلاقها من تعفف وبُعدٍ عن الرذائل وكل شائكة تشوك المرأة.

وبلغ خديجة رضى الله عنها صوت الحبيب محمد ﷺ وذلك لأمانته، وصدق حديثه، وكرم أخلاقه، وماله من النسب والشرف فى قريش، فأرسلت إليه

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم: ٧/٤٥١ حديث رقم ٦١٥٦، والبخارى فى مناقب الأنصار حديث رقم (٣٨٢٠) فى الفتح (فتح البارى:٧/١٣٣، والنسائى فى المناقب (فى الكبرى) على ما فى تحفة الأشراف: ١٠/٤٤٤ ومعنى قصب:اللؤلؤ المجوف.

(٢) لمراجعه النسب انظر:ـ الروض الأنف:ـ ١/٢١٣.

حتى يحضر إليها، فحضر المصطفى ﷺ فاستأذنته فى الخروج فى مالها فوافق، ثم أستأذنته أن يخرج معه غلاما لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجره قريباً من صومعة راهب من الرهبان فأطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: ـ هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة فكان ميسره فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة، وأشتد الحر، يرى ملكين يُظلان المصطفى ﷺ من الشمس وهو يسير على بعيره فلما قدم مكة على خديجه بمالها باعت ما جاء به، فأضعف «أى زاد ونمى قُرابه الضعف» وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه[1].

فيا ترى ماذا فعلت عندما علمت ذلك؟

* المرحله الثانية: خديجة الزوجة:

«محمد ﷺ كان يشتهى النساء»:

لعل الإجابه عن موقف عائشة عندما علمت ما علمته عن محمد ﷺ يجعلنا نجيب عن تهمه القاها أهل الكفر والإلحاد على النبى ﷺ وهى أنه «يحب ويشتهى النساء وذلك لكثرة زواجه» والإجابه بالطبع لا، فكل النساء اللائى تزوجن من نبى الرحمة ما تزوجن إلا بامر من السماء ولم تكن هناك زوجة باختياره وحبه إلا السيده خديجة رضى الله عنها رغم أنها كانت تكبره ولكنه اختار الإنسانة التى توافرت فيها العفة والطهارة وجميع ما يوصف فى المرأة من خلق طيب هذا هو اختيار النبى ولم نجد أنه تزوج معها إنسانه أثناء حياتها فقد كانت هى وفقط لأنه نبى جميع أفعاله من الصواب أصلها ومنشأها ولا نطيل فى تلك المسألة وكفانا أن نقول: لقد كان رسول الله ﷺ صاحب اختيار يدل على نفسه فلو كان ممن يعشقون

---

(۱) الأحداث منقوله معنى لا نصاً من كتاب الروض الأنف للسهيلى: ۱/۲۱۱ ـ ۲۱۳.

الأجساد ويطلبون الملذات لكان له فى الأبكار الصغار متسعاً فهو القرشى الهاشمى الذى لا ترد خطبته وله ماله من جمال وهيئة وقوة وفتوة ما يزيل أمامه العقبات فكل النساء كن يرغبن محمد ولكنه اختار الثيب التى تزوجت قبله مرتين حباً فى السكينة والعشرة الحسنة لا الشهوة والملذة.

ولنكمل سويا ما فعلته خديجة رضى الله عنها، تلك التى أمعنت فى محمد ﷺ لا لأنه رجلٌ جميل وأمين وقوى ولكن لأنه نبى، نعم هذه هى الحقيقة فقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلانى:ـ إن الفاكهى فى (كتاب مكة) روى عن أنس: «أن النبى ﷺ كان عند أبى طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له، وبعث بعده جارية له يقال لها نبعة فقال لها: انظرى ما تقول له خديجة؟.

قالت نبعة: فرأيت عجباً، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها[1]، ثم قالت خديجه: بأبى وأمى، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى ستبعث، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى يبعثك لى.

فقال لها المصطفى ﷺ: والله لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندى مالا أضيعه أبداً، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً»[2].

وهنا تم التجاوب بين الاثنين وتزوج محمد ﷺ بخديجة بنت خويلد رضى الله عنها.

وبدأت المرحلة الثالثة فى حياتها التى عَمُرت بالإخلاص والوفاء.

* المرحله الثالثة:

خديجة صاحبة الوسام:

قلنا فى مقدمة أمر السيدة خديجة رضى الله عنها أنها صاحبه بيت فى الجنة وهذا نبأ وخبر من السماء فيا ترى لما خديجة بتلك المنزلة؟ ولم هى صاح الوسام فى الكمال والأجر؟

---

(١) نحرها: العنق من مكان الذبح.

(٢) القصة فى فتح البارى لابن حجر: ٧/ ١٣٤, ١٣٥.

ومن أراد الإجابة فلينظر إلى تاريخها الحافل بالجهاد فى مواطن كثيرة نعم لقد جاهدت خديجة رضى الله عنها مع محمد ﷺ فقد نصرته وصدقته وكانت بجواره حين تركه الأقارب والخلان فذا هو الجهاد الحقيقى للمرأة، نُصرتها لزوجها عندما يتخلى عنه أهله وأقاربه، ولننظر سويا إلى ما فعلته خديجة رضى الله عنها.

فى البداية جاءها رسول الله ﷺ وهو يرتجف ويقول لها «زملونى، زملونى»، فلم تخش خديجة من شىء إلا خشيتها على حاله فقامت وزملته ثم احتضنته وواسته وقالت له فى ثقه ويقين: لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل أى تقوم على حاجة من لا يستطيع الحركه، وتكسب المعدوم (أى تنفق عليه) وتصدق الحديث، وتقرى الضيف أى تكرمه، وتعين على نوائب الدهر» فهدأت من نفس الرسول ﷺ بحسن حديثها وثباتها امرأة لا تعرف إلا حق الله وحق زوجها فكانت نعم الأنيس فى عظيم الشدة.

فهدأ رسول الله ﷺ، فطلبت منه أن يقص عليها ما حدث فأنبأها بما كان فى شأن الغار حين أتاه جبريل وقال له :اقرأ، إلى أن علمه، وانصرف عنه.

فقالت له خديجه: أبشر يابن العم فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقه بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وهو ابن عمها، وكان ورقة من أحبار القوم سمع من أهل التوراة والإنجيل، وقرأ فى كل الأديان ولكن كان يدين بالنصرانية لأنها آخر رسالة نزلت من السماء فى عصره.

فأخبرته السيدة خديجة عما كان فى شأن محمد ﷺ فقال ورقه بن نوفل: قدوس قدوس، والذى نفس ورقه بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس[1] الأكبر الذى كان يأتى موسى[2]، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له: فليثبت.

---

(١) الناموس: هو الذى يحمل خبر الخير وسره وهذا بخلاف الجاسوس لان الجاموس: هو صاحب خبر الشر وشره.

(٢) يأتى موسى: ذكر موسى بالأخص لأنه كان يدين بالنصرانية وموسى هو أقرب نبى يذكر فى ذلك الموطن.

ثم أنبأها بما يكون فى شأن قومه من تكذيب له وإخراجه، ثم رجعت خديجة رضى الله عنها وأنبأت رسول الله ﷺ بما قاله ورقة، ولكن يا ترى بعد أن سمعت ما سيكون من تكذيب وإخراج هل ستتخلى عن زوجها؟ هل ستتركه وتقول لبذهب كل منا إلى حاله فأنت إلى جهادك فى قومك وأنا إلى ما كنت فيه من نعيم؟.

لا، والله لم يحدث ذلك بعد أن علمت أنه سَيُكَذب وسيخرج من أرضه ولكنها وقفت بجواره بمالها وجهدها تواسيه وتأنس وحدته.

ولقد قال عنها رسول الله ﷺ: **«آمنت بى إذ كفر بى الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء»**[1].

وقد ظلت خديجة رضى الله عنها كذلك على ضربها من الجهاد إلى أن توفاها الله.

فى السنة العاشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثلاث سنين شاء القدر الذى يبتلى الناس قدر دينهم أن يأخذ من الرسول ﷺ زوجته الحبيبة وقرة عينه التى كانت له عونا ناصراً، ووزير صدق على الإسلام كما أطلق عليها ابن هشام.

وقبلها بقليل مات ساعده الأيمن عمه أبو طالب، تلك كانت ملاذه فى الداخل، وهذا كان عضده وناصره فى الخارج، فكان هذا المصاب بعد ذاك جديراً أن يترك فى نفس الحبيب محمد ﷺ أثراً عميقاً جعله يسمي هذا العام بعام الحزن.

ماتت خديجة ولكن ذكراها لم تمت فى نفس رسول الله ﷺ، لقد ظل وفيا لها طوال حياته، يحن لذكراها، ويكرم أهلها، ويقوم على خدمة صديقاتها، حتى أن عائشه أحب أزواجه إليه بعدها لتغار منها فى قبرها[2].

فرحمة الله على تلك المجاهدة التى كانت خير عون لرسول الله ﷺ على نشر دعوته، ولننظر سويا إلى مجاهدة أخرى وهى فاطمة ابنة رسول الله ﷺ.

---

(١) الحديث منقول رواية عن السيدة عائشة وقد رواه ابن حجر فى الفتح ٧/ ١٣٧.

(٢) تم تجميع ماسبق ذكره من كتاب السيرة لابن هشام: ١/ ١٨٥-١٩٠ وكتاب نساء مؤمنات: ١٤ - ١٧.

ثانيا :فاطمة الزهراء:

لقد ذكرت فى أول الباب بأمر مُنزل الكتاب، أن هناك سته من النساء سنختصهم بالذكر وهن خديجة وفاطمة وأسماء وعائشة وأم سليم وأم عماره، ولعل البعض يسأل لما هؤلاء النساء؟

والإجابه لأن لكل واحدة منهن لوناً من ألوان المرأة الوفية المخلصة فمنهم من كانت سنداً ومعولاً لرسول الله ﷺ فساندته وقامت بجواره وهى خديجه رضى الله عنها، ومنهم من كانت نعم المرأة فى الخلق والامتثال لأوامر الله وترك زخارف الدنيا وقصورها وشهواتها وملذاتها ورضاها بأن تكون هى سيدة نساء المؤمنين، وهنا نقف لأنها موضع حديثنا، نعم سيده نساء المؤمنين هى فاطمة بنت محمد ﷺ ولننظر لما استحقت هذا اللقب.

أ ـ فاطمة تعلن: (اللهم رضينا بالآخرة):

إن من تنعمت بسلطة أبيها ينبغى أن تتزوج من أسياد القوم وأكثرهم غنى ومال حتى يتم لها الحصول على السلطة والمال ولكن يا ترى هل هذا كان تفكير فاطمة بنت محمد ﷺ؟

الإجابه بالطبع لا، فإن فاطمة رضى الله عنها كانت صغيرة ولم تبلغ إلا فى المدينة وهنا أضاءت فاطمة أمام عينا على بن أبى طالب ذلك الشاب الذى لا يمتلك مالاً ولا رئاسة ولكنها قبلته لأنها أرادت شاباً يدفعها فى طريق النور يسير بها فى خط مستقيم إلى رضاء رب العالمين وبالطبع سيتبادر إلى ذهننا، هل كانت تشترط على الأقل؟

والإجابه لا، وانظر إلى قول على بن أبى طالب حين قال: أردت ان أخطب إلى رسول الله ابنته ـ والله ما لى شىء ـ ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه، فقال: «وهل عندك شىء؟» فقلت:ـ لا، قال: « فأين درعك الحطمية التى أعطيتك يوم كذا وكذا؟» قلت:ـ هى عندى، قال:ـ فأعطها إياها.

هذا هو مهر بنت أشرف خلق الله زواج مثالى مهر هو للزوج مرجعه ولنمضى سويا لننظر إلى البيت وفرشه هل كان فرشه من ريش النعام أم كان من الحرير والديباج.

اسمعوا، يقول جابر بن عبد الله :ـ حضرنا عرس على، فما رأيت عرساً كان أحسن منه، حشونا البيت طيباً، وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا، وكان فراشهما ليلة عرسهما إهاب كبش «جلد خروف» هذا هو الفرش لبنت رسول الله ﷺ، وغير ذلك هل كانت حياتها بعد الزواج لينه كما يليق بها، «بنت النبى» لا والله فقد كانت كأفقر امرأة فى أهلها حتى أنها أصبحت لا تستطيع العمل وتحتاج إلى دفعة، دفعة تجعلها تُكِنُ فى نفس (اللهم رضينا بالآخره) وتجعلها نصب عينها ما دامت على وجه البسيطة، ولننظر سويا إلى تلك الدفعة المحمدية.

يحكى أن على بن أبى طالب كان يحمل الماء ويعمل بالأجر فكان على فاطمة رضى الله عنها أن تقوم بجميع أعباء البيت ومنها أن تطحن الطعام حتى مجلت[1] يداها، فسمعت بسبى لرسول الله ﷺ (أى غنائم من العبيد) فذهبت إليه، فلم تجده ووجدت عائشه فأخبرتها، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة، فجاء النبى ﷺ إلى فاطمه، وكانت قد أخذت مضجعها هى وعلى بن أبى طالب، فذهب على ليقوم، فقال رسول الله ﷺ: على مكانكما، فقعد بينهما حتى وجد برد قدميه على صدره، وقال: «**ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما تُكبران أربعا وثلاثين، وتسبحان ثلاثا وثلاثين وتحمدان ثلاثا وثلاثين. فهو خير لكما من خادم**»[2].

هذه هى الدفعة المحمدية الذكر أفضل من الخادم، الآخرة يا فاطمة أفضل من الدنيا فهل تقبليها؟

نعم قبلتها فاطمة، لأن على رضى الله عنه يقول فما زلنا على ذلك، أى على تلك النصيحة المحمدية، الآخرة خير من الدنيا، الراحة لا تلتمس فى تلك الدنيا لأنها ليست لذلك وإنما هى للعمل والاستعداد والتشمر، فقبلت فاطمة النصح بطيب نفس وما عسانا أن نقول بنت من هى أليست بنت خير خلق الله فما عساها إلا أن تعلن اللهم رضينا بالآخرة.

---

(١) مجلت يداها :ـ أصابتها المجلة وهى قشرة رقيقة يجتمع فيها الماء تحت بشرة الجلد من أثر العمل اليدوى.

(٢) القصة محمولة معنى من حديث ذكره البخارى انظر الفتح : ٧/ ٧١.

ب ـ غيرة بنت الرسول:

لعلنا قد ذكرنا من المدح ما ذكرنا ولكن التاريخ حتماً ولابد أن تظهر فيه جوانب السوء كما تظهر جوانب المدح فالتاريخ لا يغفل عن ذلك ولا عن ذاك، ولكن جانب السوء من ناحية فاطمة بنت رسول الله ﷺ كان ضئيلاً ومن أمعن فيه النظر أدرك وعلى الفور أنها ليست مسأله أساءة ولكنها غضب لحق، وحتى لا نطيل فلننظر لما حدث ولنجعل لحكم بعد الإمعان فى الحادثة.

يقول المسور بن مخرمة «إن على بن أبى طالب خطب بنت أبى جهل وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبى ﷺ، فقالت له:ـ إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك. وهذا على ناكحاً ابنة أبى جهل، قال المسوَرُ:ـ فقام النبى ﷺ فسمعته حين تشهد ثم قال «أما بعد فإنى أنكحت أبا العاص ابن الربيع فحدثنى فصدقنى وإن فاطمة بنت محمد مضغة منى وإنما أكره أن يفتنوها وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجُلٍ واحدٍ أبداً[1].

هذه هى القصة ومن يمعن فيها النظر يدرك أن فاطمة رضى الله عنها لم يدفعها الغيرة الحقيقية التى هى بمفهومها عند النساء حب امتلاك الزوج، ولكن دفعتها الغيرة الدينية فكيف تجتمع بنت رسول الله ﷺ إمام الخير وصاحب النور مع بنت إمام الشر وصاحب الظلمة أبا جهل، فخافت فاطمة على دينها وأسرعت إلى أبيها.

هذا هو الجانب السيىء الذى ذكره التاريخ، جانب الغيرة ولكن مع الإمعان قد اتضح لنا حقيقته.

جـ ـ أحزان فاطمية:

يا ترى هل تبكى بنت رسول الله ﷺ على الدنيا؟ أم أن بكاءها على الآخرة طمعاً فى رضاء ربها؟

---

(١) الحديث رواه مسلم تحت باب فضائل فاطمة: ٧/ ٤٨٥ الحديث رقم ٦١٩٣، ورواه البخارى فى الفتح: ٦/ ٢١٢ تحت باب «ما ذكره فى درع النبى ﷺ، وفى الجمعة وفى فضائل الصحابة، ورواه أبو داود: ٢/ ٢٢٥، ٢٢٦، ورواه النسائى فى المناقب (فى الكبرى) على ما فى تحفة الأشراف (٨/ ٣٨٥)، ورواه ابن ماجه فى النكاح: ١/ ٦٤٤.

فلننظر سويا إلى هذا الحديث حتى نعلم أن بنت رسول الله ﷺ لم تكن لتبكى إلا للفراق، نعم، فراق أبيها الذى كان مشعل النور وركيزة نشر الدعوة الإسلامية، فإن لم تبك على ذلك، فعلى ماذا تبكى؟

والحديث عن مسروق، عن عائشة قالت: كُنَّ أزواج النبى ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشى ما تخطئ مشيتها من مشيه رسول الله ﷺ شيئا. فلما رآها رحب بها. فقال: «مرحباً بابنتى» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله. ثم سارها فبكت بكاءً شديداً فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت. فقلت لها: ـ خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرَار. ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشى على رسول الله ﷺ سِرَّهُ. قالت: فلما تُوُفِّىَ رسول الله ﷺ، قلت: عَزَمتُ عليك، بما لى عليك من الحق، لما حدثتنى ما قال لك رسول الله ﷺ، فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سَارَّنى فى المرة الأولى، فأخبرنى أن جبريل كان يعارضهُ القُرآن فى كل سنة مرة أو مرتين، وإنه عارضه الآن مرتين، وإنى لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقى الله واصبرى. فإنه نعم السلف أنا لك.

قالت: فبكيت بكائى الذى رأيت، فلما رأى جزعى سارنى الثانية قال: «يا فاطمة! أما ترضى أن تكونى سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمه»؟ قالت: ـ فضحكت ضحكى الذى رأيت[1] نعم لقد بكت بنت رسول الله ﷺ ولكن متى؟ عندما علمت بأن الحبيب سيفارق الدنيا ويترك الاحباب فخافت وبكت وجزعت من هذا الخبر النور سيفارقها سيتركها وهو من به كان الرضا، فبكت.

ولكنها ضحكت عندما علمت أنها بذرة خير من شجرة خير من أصل خير وفى رواية أنها ضحكت لأنه أخبرها أنها أول من يتبعه من أهله.

وما هى إلا أشهر ستة حتى صدقت نبوءته عليه السلام، وكانت فاطمة أول أهله لحوقا به. ففى ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من

(١) الحديث بتمامه انظر صحيح مسلم بشر النووى (باب فضائل فاطمة) حديث رقم ٦١٩٦ ٧/ ٤٨٦، ٤٨٧، ورواه البخارى فى المناقب (٣٦٢٣) باب علامات النبوة فى الإسلام» الفتح: ٦/ ٦٢٨ وورد فى الاستئذان، وعلقه فى فضائل القرآن، ورواه النسائى فى الوفاه وفى المناقب «كلاهما فى الكبرى على ما فى تحفة الأشراف: ١٢/ ٣١٢، ورواه ابن ماجه فى الجنائز (١٦٢١) «باب ما جاء فى ذكر مرض رسول الله ﷺ»: ١/ ٥١٨.

الهجرة تلقت السماء تلك الروح الذكية، ودفن ذلك الجسد الطاهر فى أرض البقيع المباركة ودفنت ليلاً كما أوصت، تاركة وراءها ذكراً حسنا فى الآخرين، ومثلاً صالحا للمؤمنات، وذرية طيبة موصوله بنسب الرسول الكريم رضى الله عنها (أم الحسن والحسين)، وجزاها خير ما يجزى به الصديقات.

ثالثا: أسماء بنت أبى بكر الصديق:

أسماء بنت أبى بكر الصديق، صاحب رسول الله ﷺ ورفيقه، وأخت عائشة أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ، وزوج الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته، وأم الفارس الذى كتب له التاريخ ملحمة (عبد الله بن الزبير).

لوناً من ألوان الفداء والتضحية، وقاعدة كانت تمتلكها تلك المرأة، لابد وأن يكتب التاريخ تلك القاعدة لتظل رغم أنف الظالمين باقية حتى قيام الساعة وهذه القاعدة هى «ما أحلى أن نموت لله» نعم فهى تفضل أن تحيا لله وتموت لرضا الله، على أن تُنعم وترغد وتذوق طيب العيش، ولمن أراد الاستزادة فلينظر معى إلى ما كتبه التاريخ.

أ ـ أشجع من عنترة:

ربما يقاس الرجال فى ضروب المعارك فيظهر أمام الناس من هو الأشجعْ والأقوى ولكن يا ترى هل هذا هو مقياس الشجاعة الوحيد؟ بالطبع لا، فليست ضروب المعارك هى مقاييس الشجاعة والجرأة ولكن هناك ضروب أخرى كالثبات أمام الرجال والجرأة على تحمل المصاعب ومفاجع الزمان ولقد أوضحت لنا أسماء بنت الصديق كيف تكون المرأة فى مواطن المحنة.

ولننظر إلى قصتها ثم لنحكم إن كانت تستحق ذلك اللقب أم لا.

«لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه، أتاها نفر من قريش وكان فيهم أبو جهل بن هشام علم الكفر وغلظة القلب والبطش على السواء فوقفوا على بابها «باب بنت أبى بكر الصديق»، فخرجت إليهم فى شجاعة وثبات ولم تهب الرجال ولا حتى ذلك المدعو أبو جهل، فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبى بكر، قالت: لا أدرى والله أين أبى، فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدها لطمة طرح منها القرط.

فسكتت ولم تهب ذلك الموقف، بل وسارعت حتى لا تحدث فتنة فى دارها نعم؛ لأن أبوها أبو بكر الصديق عندما خرج مع رسول الله ﷺ أخذ معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف وكان هذا ماله كله فدخل أبو قحافه والد أبو بكر وكان بصره قد ذهب، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقالت أسماء حتى تمنع الفتنة فى الدار: كلا يا أبت قد ترك لنا خيراً كثيراً، فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة البيت التى كان يضع فيها أبو بكر رضى الله عنه ماله، ثم وضعت على الأحجار ثوباً، ثم أخذت بيد جدها، وقالت: - يا أبت ضع يدك على هذا المال، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا المال فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم»[1].

هكذا أخمدت أسماء بنت الصديق ناراً لو فتحت لتألمت بها أسرة أبى بكر ثم شدت على نفسها وكانت تخرج بالطعام والشراب لرسول الله ﷺ، وشقت نطاقها لذا سميت بذات النطاقين، أسماء نعم المرأة أشجع من عنترة فهى لم تقابل الرجال بالسيوف ولكنها تحملت الآلام وخاضت فى المخاوف فلو عرف الكفرة شأنها لقتلوها فرحم الله تلك المرأة التى هى فى الميزان أشجع من عنترة.

ب - يا صبر أيوب:

إن الميدان يتسع لذكر صبر أيوب فى كتب التاريخ ولكنه لا يتسع لذكر تلك المرأة التى كان صبرها أعظم من صبر أيوب ولمن يريد الاستزادة فليقرأ بإعادة حتى يمعن النظر فى شأن تلك المرأة، التى كان لها فى كل مكرمة قدماً ورسوخاً حتى فى ميدان الصبر، فلنقرأ سوياً تلك القصة ولنحكم حكم عدل.

«دخل عبد الله[2] بن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر فى اليوم الذى قُتِلَ فيه، وقد رأى من الناس الخذلان والجبن وعدم الصمود معه بل وحيادهم عنه وعن وجهته.

فقال: يا أماه! خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى، فلم يبق معى إلا يسير ممن

---

(١) القصة منقولة معنى لا نصاً من كتاب البداية والنهاية لابن كثير: ٣٠/ ٢٢٢.

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، والداه من أصحاب رسول الله ﷺ ومن السابقين إلى الإسلام بايعه أهل مكة والمدينة ليكون خليفة المسلمين بعد مقتل الحسين بن على، قتل فى خلافة عبد الملك بن مروان على يد الحجاج سنة ٧٣ هـ.

ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما قولك؟

فقالت: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية،. وإن كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتِلَ معك، وإن قلت كنت على حق، فلما وهن «ضَعُفَ» أصحابى ضعفت فليس هذا من فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن، والله لضربة بالسيف فى عز، أحب إلى من ضربة بالسوط فى ذل[1].

قال عبد الله: إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلو بى.

فقالت أسماء: يا بنى، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها. فدنا منها «أى اقترب منها وقبل رأسها.

وقال لها: هذا والله رأيى، والذى قمتُ به داعيا إلى يومى هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت أن أعلم رأيك، فزدتنى بصيرة مع بصيرتى.

فانظرى يا أماه فإنى مقتول فى يومى هذا، فلا يشتد حُزنك، وسلمى لأمر الله. فإن ابنك لم يتعمدْ إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا مُعَاهَد، ولم يبلغنى ظلمٌ عن عُمالى فرضيت به، بل أنكرته ولم يكن شىءٌ آثر عندى من رضا ربى، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى أنت أعلمُ بى، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلوعنى «أى تنسانى إذا قتلت».

فقالت أسماء: إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً إن تقدَّمتنى وإن تقدمتك فى نفسى حرج حتى أنظر إلامَ يصير أمرُك قال: يا أماه جزاك الله خيراً! فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد[2].

---

(١) من أراد أن يعظ الناس ويعظ نفسه فلينظر إلى تلك الكلمات التى لو كان بمقدورى أن احفرها على صدرى لحفرتها ولكن أرجو من الله أن تكون فى قلوبنا

(٢) يقصد قبل وبعد الموت.

فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق.

ثم قالت: اللهم ارحم ذلك القيّام فى الليل الطويل، وذلك النحيب[1] والظما[2] فى هواجر المدينة، وقلة وبرٍّه بأبيه وبى، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ثم ودعها وخرج.

وبالطبع قُتِلَ عبد الله ولكن اى صبر هذا فأيوب قد أصيب ولكنه لم يدفع ماله وولده للإصابة، ولكن الإصابة هى التى جاءته فصبر، فما بالكم بتلك المرأة هى التى تدفع ابنها وتشجعه حتى يصاب ولكنها تعلم أن من كان مع الله فهو رابح لا خاسر، فمرحى بتلك المرأة فى ميادين الصبر والشجاعة.

وأختم قصة أسماء بنت الصديق بقصة حدثت لها فى نهاية عمرها ثم نذكر متى ماتت بأمر المولى عز وجل.

جـ ـ يا حجاج:

صلب (الحجاج) عبد الله بن الزبير مبالغة فى التشفى والإرهاب، ثم أرسل إلى أمه أسماء، فرفضت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك «يقصد ضفيرة الشعر» فرفضت وقالت: والله لا آتيها حتى يبعث إلىّ من يسحبنى بقرونى فما كان من الحجاج إلا أن أرضخ لصلابتها، وانطلق حتى دخل عليها.

فقال: أرأيت كيف نصر الله الحق وأظهره؟

قالت: ربما أديل الباطل على الحق وأهله.

قال: كيف رأيتنى صنعت بعدو الله.

قالت: أراك أفسدت على ابنى دنياه، وأفسد عليك آخرتك.

قال: إن ابنك ألحد فى هذا البيت وقد قال الله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾[3] وقد أذاقه الله ذاك العذاب الأليم.

---

(١) النحيب: البكاء من خشية المولى عز وجل.

(٢) تقصد العطش فى الصيام والجهاد.

(٣) الحج: ٢٥.

قالت: كذبت. كان أول مولود ولد فى الإسلام بالمدينة، وسُرَّ به رسول الله وحكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحا به، وكان براً بأبويه صواماً قواماً بكتاب الله، معظماً لحرم الله، مبغضاً لمن يعصى الله - اما أن رسول الله حدثنى فى ثقيف كذابا ومبيراً أى: سفاحاً قتالا، فأما الكذاب فقد رأيناه تعنى المختار بن عبيد الله الثقفى، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه فخرج الحجاج من عندها منكسراً يتمنى لو لم يكن لقيها، بعد أن دخل عليها مذهوا يريد أن يتشفى.

هذه هى أسماء العجوز فى سن المائة، وهذا هو الحجاج الجبار فى أوج انتصاره، وعنفوان طغيانه. إن الإيمان فى قلبها جعله فى عينها يتضاءل ويتضاءل حتى صار شيئا صغيرا كالهباء، وجعلها فى عينه تمتد وتستطيل حتى صارت شيئا كبيرا كالمارد العملاق..

وبلغ عبد الملك بن مروان ما صنع الحجاج مع أسماء فكتب إليه يستنكره على فعله، ويقول: مالك ولابنة الرجل الصالح؟ وأوصاه بها خيراً، ودخل عليها الحجاج فقال: يا أماه إن أمير المؤمنين أوصانى بك فهل لى من حاجة؟، فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم المصلوب على الثنية، ومالى من حاجة.

وأخيراً آن للفارس المصلوب أن يترجل، وينزل من فوق خشبته ويُسَلم إلى أمه فتحنطه وتكفنه، وتصلى عليه وتودعه جوف الثرى «التراب» ليلتقى فى دار الخلد بأبيه الزبير وجده أبى بكر، وجدته صفية وخالته عائشة رضى الله عنهم أجمعين، وهكذا استقبلت تلك المصيبة الكبيرة بنفس أكبر وإيمان أقوى دخل عليها عبد الله ابن عمر، وابنها مصلوب، فقال لها: هذا الجسد ليس بشىء وإنما الأرواح عند الله، فاتقى الله واصبرى فقالت: - وما يمنعنى، وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا إسرائيل.

ولم يطل بها المقام بعد ولدها، فما هى إلا مائة يوم أو أقل حتى لحقت به عام ٧٣ من الهجرة، وبلغت المائة عام ولم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل. رحمها الله ورضى عنها[١].

---

(١) القصة تم ذكرها فى البداية والنهاية غير مطولة على هذا النحو وروجعت من حيث الصحة والقبول، ولكن تم نقلها من كتاب نساء مؤمنات: ٤١ - ٤٣ لسهولة العرض والبسط فيه دون غيره من المراجع التاريخية.

رابعا: أم سليم «الغُمَيْصَاء»:

بعد أن ذكرنا الملحمة الرائعة من الصبر التى كُتِبت بيد التاريخ رغماً عن أنفه لأن مواطن الصبر والجلادة ما هى إلا للرجال فقد قال الشاعر: ـ

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

وقال آخر: ـ

خلقنا رجالا للتجلد والأسى   وتلك نساء للبكا والمآتم

نعم هذا ما يكتب فى التاريخ الرجال للحروب للشدة لمواجهة الكوارث ولكن لمعت أسماء فى ذلك وها هى أم سليم موضوعنا الآن تضرب مثالاً آخر للمرأة فى ميدان التحمل والجلادة والصبر على المصائب ولمن أراد الاستزادة فلينظر إلى قصتها أولا ليرى كم كانت مؤمنة ثم لننظر إلى مواطن صبرها ولنحكم هى كما قلنا أم لا.

أ ـ وإسلاماه:

رُبما تختار المرأة بريق الذهب والفضة وتترك بعض معتقداتها ولكن يا ترى هل هناك نساء رفضت الذهب والفضة واختارت الإسلام؟

إن الإجابة نعم فهناك من قالوا: .... وإسلاماه، الإسلام هو ذَهَبُنا هو فضتُنا هو مُلكنا الذى نغنى به فى الدنيا والآخرة نعم ومن أكبر الأمثلة وأعظمها تلك التى بين يدينا قصتها وهى أم سليم فقد تزوجت تلك الأنصارية الخزرجية بمالك ابن النضر البخارى فولدت منه أنسًا، فلما جاء الله بالإسلام أسلمت مع السابقين إليه من الأنصار، ودعت زوجها مالك إلى الإسلام ولكنه رفض وهاجر إلى الشام ومات هناك.

فقال أم سليم رضى الله عنها: لا أتزوج حتى يبلغ أنس ويجلس فى المجالس، نعم التربية ولقد قال أنس رضى الله عنه فى حقها: «جزى الله أمى عنى خيرا، لقد أحسنت ولا ايتى» ثم تقدم لها أبو طلحة يخطبها، وهو يومئذ مشرك، وقال لها: لقد جلس أنس وتكلم.

فقالت له: يا أبا طلحة أما إنى لراغبة فيك، وما مِثْلُكَ يُرد، ولكنك رجل

كافر، وأنا امرأة مسلمة، لا يجوز لى أن أتزوجك.

فقال أبو طلحة فى تعجب واستغراب: ماذا دهاك يا غُمَيْصاء؟

أين أنت من الصفراء والبيضاء[1].

فقالت فى ثقة ويقين: - لا أريد صفراء ولا بيضاء، فأنت امرؤ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئا، أما تستحى يا أبا طلحة - أن تعبد خشبة من الأرض بخرها لك حبش بن فلان؟!

إن أسلمت فذلك مهرى، لا أريد من الصداق غير فأسلم أبو طلحة بيقين لأنه رأي أن تلك العقيدة أجمل من الدنيا وزخارفها، وأعلن معها والإسلاماه.

ب -: - يا صبر الغُمَيْصَاء: -

قبل أن نذكر صبرها وما كان منها فى ميدان التحمل وحسن التصرف فى الشدائد. بودى لو ذكرنا معنى كلمة الغُمَيْصَاء.

الغُمَيْصَاء: الغمص قذى يابس أو غير يابس يكون فى أطراف العين، والغميصاء والرميصاء بمعنى واحد[2].

هذه هى معنى كلمة غيمصاء ولنمضى سويا لننظر إلى ما رواه أنس بن مالك ابنها عنها، حيث سيوضح لنا مدى صبر تلك المرأة واحتسابها الأمر دائما لله.

يقول أنس: «مات ابن لأبى طلحة من أم سليم «أم أنس بن مالك» فقالت لأهلها: لا تُحدثُوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحدثُهُ. فجاء أبو طلحة» فقربت إليه عشاء. فأكل وشرب، ثم تَصَنَّعَتْ له أحسن ما كانت تَصَنَّع قبل ذلك. فوقع بها «أى جامعها» فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم «أى الأشياء التى أعطوها لهم» ألهم أن يمنعُوهُم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك[3].

---

(١) الصفراء والبيضاء: يقصد بهما الذهب والفضة، وهنا يتضح صمود أم سليم ما بريق الذهب والفضة، وتفضيل كلمة العاشقين بهذا الدين والإسلاماه.

(٢) انظر مسلم بشرح النووى: ٧/ ٤٩٧.

(٣) هذا هو موضوع حسن التصرف والثبات لو أن امرأة مكانها لكانت انهالت فى الصُراخ، ولكنها امرأة لا تعرف إلا العقيدة والإيمان فما كان منها إلا الثبات.

وغضب وقال: تَركتَني حتى تلطخت ثم أخبرتنى بانبى! فانطلق إلى رسول الله ﷺ. فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» فحملت أم سليم.

فكان رسول الله ﷺ فى سفرٍ وهى معه وكان رسول الله ﷺ، إذا أتى المدينة من سفرٍ، لا يطرقها طروقا فدنوا من المدينة. فضربها المخَاض فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ.

فقال أبو طلحة: إنك لتعلم، يارب إنه ليعجبنى أنى أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل وقد احتبست بما ترى، فقالت أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذى كنت أجده، انطلق.

فانطلقنا وضربها المخاض حين قدِما، فولدت غلاماً فقالت أم سليم: يا أنس، لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبح احتمله أنس وانطلق به إلى رسول الله ﷺ، فصادفه ومعه ميسم. فلما رآه قال: «لعل أم سليم ولدت؟»، قال أنس: نعم فوضع رسول الله ﷺ الميسم، وجاء أنس ووضع الغلام فى حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها فى فيه «أى فى فمه» حتى ذابت، ثم قذفها فى فىّ الصبى «أى فى فم الصبى» فجعل الصبى يتلمظها، فقال رسول الله ﷺ «انظروا إلى حب الأنصار التمر» ومسح وجهه وسماه عبد الله[1].

أرأيتم ماذا كان جزاء الصبر الذى كان من قبل امرأة هى للنساء قدوة إن أرادوا الاقتداء وكانوا يردن الارتقاء.

ويقول النووى استجاب دعاء النبى ﷺ جعلتها تحمل بعبد الله بن أبى طلحة فى تلك الليلة وجاء من ولده عشرة رجال علماء أخيار.

وعساى أن أختم الحديث عن تلك المرأة قائلا كفاها فخراً إن ورد فيها حديث المصطفى ﷺ: «أُريتُ الجنة فرأيت امرأة أبى طلحة، ثم سمعت خشخشة أمامى.

(١) الحديث بتمامه ولفظه فى صحيح مسلم بشرح النووى: ٧/ ٤٩٥، ٤٩٦، وقد تفرد به مسلم.

فإذا بلال»[1].

خامسا: أم عمارة:

ربما يكون ختام ملحمة الصبر والجهاد مع أم عمارة وهى نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية الخزرجية وكنيتها «أم عمارة».

هذه المرأة لن أغوص فى تاريخها لأنى والله إن استرسلت فى قصتها، فلن يكفنى مُجلدٌ كاملٌ من ألف ألف ورقة للحديث عن تلك المرأة وحسبى فى هذا الكتاب المتواضع الذى يجمع بغرض الموعظة من قبل من سجلوا التاريخ أن أذكر ملحمة واحدة لتلك المرأة وهى:

مُقَاتلة فى صفوف الرجال:

هاجر الرسول من مكة وقصد إلى المدينة، وتلقاه الأنصار بالنشيد والترحيب، ثم نشبت الحرب بين الرسول ﷺ وبين المشركين من قريش، وفى غزوة (أحد) كانت نسيبة، فى يمينها السِّقاءُ والضِّماد[2]، واستعرت الحرب[3] وانتصر المسلمون، ثم نالتهم[4] هزيمة، فما ارتاعت نسيبة إلا لجموع المشركين الذين قصدوا طريقهم لرسول الله ﷺ، فألقت نسيبة السقاء والضماد وحملت السيف حتى اقتربت من رسول الله ﷺ، فما كان رسول الله ﷺ يمينا أو شمالا إلا وجدها، حتى جُرحت وخارت وارتمت على الأرض.

وثَبتَ الرسول ﷺ حتى رحل المشركون وهنا تساءل المجاهدون عن نسيبة أين ذهبت؟ فإذا هى مُلقَاةٌ يفور دمها جُرحٌ غائرٌ بكتفيها، فضمدوا الجرح، وسقوها الماء فما تنبهت، حتى سألت: وأين الرسول؟وما صنع المشركون معه؟ إنه لناجٍ.

فقالوا لها: إنه لناجٍ، وإنه منك لقريب، ولكن جُرحك الغائر ودمك السائل،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المناقب حديث رقم (٣٦٧٩) باب (مناقب عمر بن الخطاب) الفتح: ٧/ ٤٠، ورواه النسائى فى المناقب: ـ ٢/ ٣٧٠، ورواه الإمام مسلم حديث رقم (٦٢٠٤) باب فضائل أم سليم: ٧/ ٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) السِّقاءُ: أى ما تسقى به الناس ماءاً، والضماد: الذى يضمد الجرح أى يكتمه.

(٣) استعرت الحرب: أى زادت فى الشدة فالتسعير هو الزيادة الكثيرة.

(٤) نالتهم: أى لَحقت بهم.

وقوتك الموهنة[1]، وولداك الناشئان، وبَعلُك الشيخ، كل أولئك منك دون محمد[2]؟.

فقالت: ـ أجل دون محمد، ودون رسالة محمد، لها خرجنا ومن أجلها قاتلنا، ولها نحيا، وفي سبيلها نموت.

هذه هي نسيبة المقاتلة الشجاعة والتي لا أستطيع أن أتكلم عنها أكثر من ذلك فعبارتها التي قالتها في أحد لا يصح أن نقول شيئاً بعدها ويظل التاريخ يكتبها بعقد من نور أن تقوم الساعة.

«ودون رسالة محمد، لها خرجنا، ومن أجلها قاتلنا ولها نحيا وفي سبيلها نموت».

سادسا: عائشة أم المؤمنين:

هذه هي آخر امرأة عندنا في ميدان الحياة النبوية وقد كان هُناك الكثير والكثير ممن ينبغي ذكرهم في هذا الكتاب ولكننا رأينا الاكتفاء بهؤلاء الستة لأنهم صورة لجميع النساء في عصر النبوة.

وهذه التي بين يدينا الآن كثُرَ الحديث عنها في كتب السيرة وكتب التاريخ ولكن كان الحديث عن صغر سنها وكم كانت ذات دلال على رسول الله ﷺ وتناسوا أنها كانت ذات صبر في ميدان الدعوة، نعم فمن أراد أن يدخل في هذا الميدان (ميدان الدعوة) فليتحمل الأقاويل والشرور في هذا الطريق الذي يمتلأ بالأشواك، ولقد تحملت عائشة الأقاويل وصبرت حتى برأها الله، ولمن يريد الاستزادة فليقرأ بإعادة.

براءة من السماء:

يقول الإمام ابن كثير: «ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع[3] بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في

(١) الموهنة: ـ أي الضعيفة لأن الوهن: ، هو الضعف.

(٢) معنى السؤال هل محمد ﷺ أهم وأعز من هؤلاء.

(٣) أقرع: ـ أي جعل قرعة بحيث يُختار من يخرج من تلك القرعة للمهمة.

غزوة غزاها فخرج فيها سهمى وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا فى المدينة. آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمى الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج عند منزلى، فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وقد كان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى، فخمرت وجهى بجلبابى، والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة، غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة، فهلك من هلك فى شأنى[1]، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى رسول الله ﷺ اللطف الذى أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟»[2] فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد مانقهت[3] وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا تخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهى بنت

(١) معنى هذه الجملة أى أخذ الناس يتحدثون فى أنها وقعت فى الزنا مع صفوان وسمتهم بالهالكين.

(٢) يقصد السيدة عائشة. (٣) نقهت: أى ذهب عنى التعب.

أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح - بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت، نسيت رجلاً شهد بدراً؟، فقالت أى: هنتاه ألم تسمعى ما قال؟، قلت: وماذا قال؟، قلت: فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل علىّ رسول الله ﷺ ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له: أتأذن لى أن آتى أبوى، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلِهما فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى فقلت لأمى: يا أمتاه ماذا يتحدث النَاس به؟ فقالت: أى بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ[1] لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى، قالت: فدعا رسول الله ﷺ، على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً.

وأما على بن أبى طالب فقال يا رسول الله: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريدة فقال: «أى بريدة هل رأيت من شىء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريدة: - والذى بعثك بالحق إن رأيت أمراً قط قد أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين مَنْ يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى» فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد ابن عباده وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتَمَلتُه الحمية فقال لسعد بن

(١) لا يرقأ: لا ينقطع.

معاذ، كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولوكان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباده: كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافق فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر فلم يذل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ قالت عائشة: وبكيت يوم ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى، قالت: فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذا استأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها فجلست تبكى معى، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شىء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمى: أجيبى رسول الله ﷺ، فقالت: ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت: وأنا جاريه حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوننى، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقونى، فوالله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشى، قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرماء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أُنزل عليه، قالت: فسرى رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن

قال: «أبشرى يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك»، قالت لى أمى: قومى إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى وأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر آيات التى فى سورة النور»[1].

هذه هى القصة بأكملها ولكن يبدو أن أهل العلم لا يرضون حديثاً عن صبر عائشة فى ميدان الدعوة، ولكنهم يرضون عن قصص دلع عائشة وتدللها وصغر سنها، نعم كانت صغيرة فى السن ولكن ها هى قصتها تُرشدنا إلى مدى صبرها لم تيأس ولم تقنط وظلت شهراً بأكمله حتى نزلت براءتها، فرضى الله عنك يا بنت الصديق.

وأخيراً أحباب المصطفى ﷺ أختم قولى عن تلك التى رابضت فى ميادين الصبر، بحديث لأنس بن ملك حيث قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

هذه هى عائشة حب رسول الله، تعلموا منها الصبر فى ميدان لا يحتاج إلا إلى الصبر والإخلاص، وهو ميدان الدعوة.

ولننتقل بعد تلك الصور الجميلة التى ظهرت بها النساء نعم ما أجملها من صور، صور فداء، وتضحية، وصبر، وإيمان وحرية حقيقية مشاركة فى الفكر دون تطاول أو وقاحة أو خروج عن حدود الأدب والآداب، نعم تلك هى أجمل الصور للمرأة ظهرت فى عصر رسول الله ﷺ: ولكن يا ترى هل التزمت بها المرأة، فلننظر سويا إلى الباب الثالث حتى نعلم الإجابة «المرأة فى عصر ما بعد النبوة».

---

(١) القصة موجودة فى كتب التاريخ بأسرها وفى كتب السيرة وبعض كتب الفقه ونظرا لكثرة المراجع فقد اخترنا مرجعاً واحداً يسهل الرجوع إليه وهو تفسير الإمام ابن كثير: ٣/٣٢٨ - ٣٣٠.

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة(٣٧٧٠) باب فضل عائشة رضى الله عنها - فتح البارى: ٧/١٠٦ وفى موضعين من كتاب الأطعمة، رواه مسلم فى باب فضل عائشة رضى الله عنها حديث رقم (٦١٨٢) كتاب الفضائل: ٧/ ٤٦٣، ورواه الترمذى فى فضل عائشة فى كتاب المناقب(٣٨٨٧) ٥/ ٧٠٦ ورواه ابن ماجه فى الأطعمة(٣٢٨١) باب فضل الثريد على الطعام: - ٢/ ١٠٩٢.

المرأة بعد عصر النبوة

ربما لا يستطيع الإنسان أن ينظر إلى طريقه دون أن يكون معه مصباح يضيء به، فهل يا ترى بعد موت الحبيب محمد ﷺ هل يبقى نوراً نلتمسه، ونجعله مصباحاً لنا يدلنا على الطريق الصحيح.

والإجابة نعم فالمصباح الذى سيظل إلى قيام الساعة هو مصباح الدين الذى يتمثل فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة التى مشى على ضربها نساء كُتبوا فى التاريخ، وأيضا هناك بعض النساء كتبهم التاريخ عبرة لأولى الأبصار لأنهم كانوا للدين لا ينظرون وعلى ضرب الهدى لا يسيرون.

وسنضرب أربعة أمثلة فقط للنساء وهن (رابعة، وزبيده امرأة الرشيد، وخاتون السفرية، وشجرة الدر، وسنجد إن شاء الله فى هذه الأمثلة الكفاية فى تجسيد حال المرأة بعد عصر النبوة.

وسنرى أن المرأة ظلت مُحافظة على دينها وحريتها وترتدى التقوى وفى قلبها الإيمان ويعتليها نور الدين، تحفظ نفسها وأهليها بأمر الله الواحد الديان إلى أن ظهرت الفتنة وبدأت المرأة تحيد عن الصواب وتلتفت إلى الدنيا وتنظر إلى اللآلئ والجواهر، تلك الأشياء التى غابت عن عين نساء الصالحين، وحتى لا أطيل فلنبدأ بأمر المولى عز وجل فى تتبع ما كتبه التاريخ عن المرأة فى عصر ما بعد النبوة.

أولا: رابعة العدوية:

هى رابعة بنت إسماعيل مولاه آل عتيك، العدوية البصرية فهى من البصرة منشأها، وهى عابدة مشهورة فى كتاب التاريخ فقد تكلم فى صلاحها وتقواها أبو نعيم فى حلية الأولياء - كتابه المشهور - وفى الرسائل أيضا، وذكرها ابن الجوزى فى صفوة الصفوة، والشيخ شهاب الدين السهروردى فى المعارف، والقشيرى، وأثنى عليها أكثر الناس.

وقال السهروردى فى حقها: -

إنى جعلتكِ فى الفؤاد محدثى   وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مـوانسٌ وحبيـب قلبى فـى الفـؤادِ أنيسـى

وبعد تلك الأبيات بودى لو ألقى عليكم قولا ينبغى أن تعلموه جيداً وهو (احذروا الأيدى التى تعبثُ فى التاريخ) نعم هذه الحقيقة لا تصدقوا كل ما تسمعوه أو تقرأوه إلا إذا وجدتم له مصدراً صحيحاً وإلا فألقوه فى غيابة النسيان، والسؤال الآن لما؟ والإجابة لأن تلك المرأة العابدة الزاهدة التقية الورعة والتى لا تزكيها على الله، قد كان لها جزءاً كبيراً من الافتراء، فقد افترى عليها بعض المتجاوزين وذكروا أنها كانت أهل غناء ورقص وأمور المجون من حظها وجانبها، فهل صدقتمونى الآن عندما أقول لكم احذروا الأيدى التى تعبث فى التاريخ واقرؤوا لمن يأتى بالبرهان والدليل.

وسوف أسوق إليكم قصة أعجبتنى فى حياة تلك المرأة وهى.

رابعة واللص:

دخل ذات مرة لصاً فى بيت رابعة العدوية ثم أخذ يبحث عن أى شىء يسرقه فلم يجد شيئا فلما هم بالانصراف خرجت عليه رابعة ودار بينهما هذا الحوار

قال: إياك أن تصرخى يا امرأة فقد بحثت فى دارك فلم أجد شيئا وهكذا سأنصرف بدون أى كلام أو مكسب.

قالت: يا هذا هل تنتظر المكسب من العبد، أم هل تنتظر الجدوى منى؟

فقال: ماذا تقصدين يا امرأة؟

قالت: إن العبيد لا ينالون مكسباً ممن يتكفل بهم فقم إلى الله واسئله يعطيك بلا حدود فهو وحده المعبود.

فقال: وماذا أفعل؟

قالت: قم فتوضأ بهذا الإبريق وصلى ركعتين للحى واطلب منه يعطيك.

فقام الرجل فتوضأ ثم أدخلته حجرة منعزله، وظلت تنتظره فى الخارج، ولكنه تأخر فى الخروج، فظنت أنه قد هرب ففتحت عليه باب الحجرة، فوجدته ساجداً لله وهو يقول: -

إذا ما قال لى ربـــى أما استحييت تعصينى

وتخفى الذنب من خلقى وبالـعـصيـــان تأتينى

فما قولى له فى محشرٍ لما يعاتبنى ويقصـــينى

وإذا به يبكى خوفاً من الله، ولكن يا ترى ما فعلته رابعة؟

أتدرون ما فعلت، لقد جلست تبكى وتقول، اللهم اغفر لرابعة.

نعم، فهى من هى رابعة، ولكن الخوف من الله دائماً كان فى قلبها فالقلب المؤمن هو الذى يجمع الحب واللجوء والخوف من الله دوماً وعلى أى حال من الأحوال وهنا أقول لقد أصلح الله بتلك المرأة الكثيرين وكانت مثالاً طيبا للمرأة وقد ماتت تلك التى يُدفن جسدها وتبقى سيرتها دوماً وابداً فى قلوبنا وكتبنا فى القدس الشريف وقبرها شرقيه الطور والله أعلم[1].

ثانيا: زبيده امرأة الرشيد:

هى زبيدة ابنة جعفر أم العزيز، الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية، كانت أحب الناس إلى الرشيد، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر، وكان للرشيد معها من الحظايا[2] والجوارى والزوجات غيرها كثيرا، ولكنه أحبها هى.

ولعل التاريخ يذكر لنا بعض لطائفه كما يذكر الأهوال والأحداث ومن لطائف التاريخ.

زبيدة اسم لكل بيضاء:

فى الحقيقة أن امرأة الرشيد التى هى موضوع حديثنا لم يكن اسمها الحقيقى زبيده وإنما كان اسمها أم العزيز وسبب هذا الاسم أن جدها أبا جعفر كان يلاعبها وهى صغيرة ويقول: يا لبياضك (لأنها كانت بيضاء جداً) إنما أنت زبيدة.

وغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به، والمعلومة التى يكتبها لنا التاريخ من لطائفه أن المرأة البيضاء ينبغى أن تسمى زبيدة.

---

(١) تم نقل بعض الترجمة من كتاب البداية والنهاية لابن كثير: ٢٠١/١٠ ـ ٢٠٢.

(٢) الحظايا: ـ جمع خظية وهى الجارية صاحبة المنزل والمكانة عند سيدها.

بهرتنى القصور وجمالها:

هذه العبارة ما هى إلا مقدمة غير صادقة إلا لمن ضعف إيمانه وقد ذكرتها لأنها تناسب تلك المرأة فزبيدة نعمت بجمال القصور وزينتها أتدرون لما؟

لأنها أدت حقوقها لم تنظر إلى المال من أجل الدنيا وإنما نظرت إليه لتتصدق ولتخرج فى سبيل الله إلى الحج لم تلهها الدنيا رغم أن الدنيا قد جمعت لها ولكنها نظرت إليها نظره المتأملة التى تعلم أن خسران المرء فى أتباعه هواه وتركه أمر الدين وأن الدنيا لا تعطى وإنما تأخذ فتمضى بها الآجال ثم الموعد الحتمى إلى شديد المحال.

ولعل الحديث سيطول فى أمر تلك المرأة، لذلك فإنى أرى أن أنهيه بقصة يحكيها لنا ابن الخطيب ويكملها ابن خلكان.

رؤيا صالحة:

أنبأ رسول الله ﷺ أن «الأرواح جنود مجندة من تعارف منها ائتلف ومن تناكر منها اختلف» كذا كما ورد فى البخارى، ومن هنا استطرد ابن الخطيب فى كتابه رؤيا عبد الله بن المبارك حيث قال:ـ رأيت زبيدة فى المنام فقلت: ما فعل الله بك؟

فقالت: غُفِرَ لى فى أول معول ضرب فى طريق مكة فقال عبد الله: فما هذه الصُفرة.

قالت: دُفن بين ظهرانينا رجل يقال له:ـ بشر المريسى[1] زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدى فهذه الصفرة من تلك الزفرة هذا ما قاله الإمام ابن الخطيب فى شأن زبيدة.

وقال ابن خلكان: أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ، وكان يُسمع لهن فى القصر دوى كدوى

(١) بشر المريسى: هو بشر بن غياث بن أبى كريمة، أبو عبد الرحمن المريسى المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، قال ابن خلكان: جدد القول بخلق، وحكى عنه أقوال شنيعة، وكان مرجئيا وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة للكفر، وكان يناظر الشافعى وكان لا يحسن النحو، وكان يلحن لحنا فاحشاً، ويقال إن أباه كان يهوديا صباغاً بالكوفة

النحل، وكان ورد كل واحده عُشر القرآن، وورد أنها رؤيت فى المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات، وما عملته فى طريق الجمع فقالت: ذهب ثواب ذلك كله وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن فى السحر «والسَّحر هو آخر الليل وقبل الفجر بقليل».

وأظن أنى بهذا قد كتبت ملخصا سريعا عن حياه تلك المرأة وعن شواهد تقواها غير أنى أقول لن توفى الكلمات حق تلك المرأة وختاما فقد توفيت رحمها الله فى بغداد فى جمادى الأولى سنه ستة عشرة ومائتين[1].

ثالثا: خاتون السفرية:

لابد وأن يكون للخير امتداد فخاتون التى سنتكلم عنها ما هى إلا امتداداً لزبيدة امرأة الرشيد، وقد رأيت بأمر المولى عز وجل أن أذكرها حتى تعلم النساء أن هناك من يقتدين بالخير ولا يطمعن فى الدنيا، برغم أن الدنيا قد جُمِعَت لهن، فلم ينبهروا بالقصور ولم يهتموا بالأموال والحلى ولكن نظروا إلا الشىء الخالد إلى الحقيقة الوحيدة التى هى رغم أنف المتكبرين واقعة، نعم فالحقيقة التى يتغافل عنها الناس لأنهم أمام الله مُحضرون، وعلى أعمالهم سيحاسبون، والنار لها زبانيه لأمر ربهم يخضعون، وزبانية جهنم رغم أنف المتكبرين، قادرون أن يسحقوا القوى، وبأمر ربهم بالسلاسل يَسحَبُون، وأن الجنه لا تعرف الحسب والنسب ولا المتفيهقون وإنما تعرف من عمل على رضاء الحى القيوم.

هذه هى الحقيقة التى تنبهت لها زبيدة ومن بعدها خاتون فلم يكن المال ليشغلهم ولا الجاه ليلهيهم وإنما كانوا دوما لله يعملون.

وسأذكر إن شاء الله مختصراً عن قصة خاتون حتى لا أطيل فى شأن امرأة قد كان لها من قد أسبقها فى الميدان.

خاتون هى حظية السلطان ملكشاه، وهم أم السلطانين محمد وسنجر، كانت كثيرة الصدقة والإحسان إلى الناس لها فى كل سنة سبيل يخرج مع الحجاج، وفيها دين وخير، ولم تزل تبحث عن أمها وأهلها حتى عرفت مكانهم، فبعثت

(١) أثر تلك المرأة وخبر بشر المريسى تم نقلهما من كتاب البدايه والنهاية: ١٠/ ٢٩٤، ٢٩٥.

الأموال الجزيلة، حتى استحضرتهم[1]، ولما قدمت عليها أمها، كان لها عنها أربعين سنة لم ترها، فأحبت أن تستعلم فهمها، فجلست بين جواريها، فلما سمعت أمها كلامها عرفتها، فعانقتها وقبلتها ثم عاشت أيامها بعد مجيء أهلها فى سعادة لأنها عرضت الإسلام على والدتها فأسلمت، لأنها تحدثت بقلب يمتلء بالإيمان، فجزاها الله خير الجزاء[2].

وقد حان لنا أن نترك تلك المرأة التى لا أريد الإطالة لها فهى بسمة مشرقة للنساء اللاتى على الهدى يسيرون ولكن أذكر قبل الإنهاء، أنها تفردت بولاء ملكين من ملوك المسلمين وهم السلطان محمد، والسلطان سنجر، وقد كان الملكين فى دولة الأتراك والعجم، ولا يعرف لها نظير فى ذلك إلا اليسير جداً من النساء، فرحمة الله عليها نعمت فى الدنيا بطاعه ربها، وكان على الله قصد سبيلها، فاللهم ارحمها وارحمنا.

رابعا: شجرة الدر بنت عبد الله:

عند تلك المرأة نقف قليلاً لنلقى الضوء على بداية الحرية التى هى من منظور أهل العلم (الحريه المذيفة) فمنذ تلك المرأة وسيرتها بدأت المرأة تخلع عن نفسها رداء التقوى وترتدى رداء الدنيا وتتحلى بالمكر والخداع ويعلوها التطلع إلى السلطة والمنصب وبدأت تترك من وراءها الأسرة، فالشغل الشاغل لها الوصول إلى متاع الدنيا.

ربما كانت هناك نساء قبل شجرة الدر أحبوا الدنيا وكانت لهم الشهوات، ولكن سبب توقفنا عند تلك المرأة لأنها طمعت فى شيء جديد، أصبح مطمع لنساء هذا العصر وهذا المطمع هو السلطة وحب الظهور.

هذا الذى أصبح من دوافع بل من أهم الدوافع إلى تأخر البلاد الراقية كأمريكا وفرنسا والاتحاد السوفيتى، نعم فالتقدم ليس بالعلم ولا بالقوة، ولكن التقدم يكون بالترابط الأسرى الذى ينبنى على قواعد تدوم مدى الحياه، لأن ترابط الأسره ينشأ عنه ترابط المجتمع، والمجتمع المترابط يكون قوة لا تزول قد تضعف

---

(١) استحضرتهم: طلبت منهم المجيء والحضور.

(٢) من أراد التفصيل والدقة فلينظر إلى البداية والنهاية: ١٢/ ٢٠٤.

ولكنها لا تزول، لأن القاعدة وهى الترابط موجودة ولا أجد ديانة على وجه الأرض ولا تشريع عضد الترابط وقوى من العلاقات بين الأفراد كهذا الدين الذى بَقى وسيبقى دائماً لأن الله هو الذى يحميه.

وحتى لا نطيل فعودة إلى التاريخ ونظرة لتلك المرأة التى فتحت شباكاً، لا بل باباً «للحرية المزيفة» وهى شجره الدر.

أم خليل التركية كانت من خطاياها الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولدت له ولداً جميلاً ذو صورة حسنة، ولكنه مات وهو صغير، وكانت لا تفارقه (أى لا تفارق السلطان) لا فى حضر ولا سفر من شدة حبه لها، ولما مات الملك الصالح كانت المفاجئة فقد مات ابنه من زوجته «المعظم توران شاه» ولذلك تولت تلك التى رسمت على السلطة، مفاتيح الحكم فحكمت البلاد وتربعت على العرش، ولكن رجال مصر لم يرغبوا فى ذلك فلما علمت أعدت لهم المفاجئة وتزوجت بالمعز ولكنها كانت ذات نفوذ وسلطة فلم تتراجع هى عن الحكم إلا لمن علمت بضعفه، ولكن عندما علمت بأنه يحب بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ويريد الزواج منها قتلته، نعم لقد قتلت المرأة السلطان وهذا لنفوذها، ولكنها لم تحتسب لأتباعه فقتلوها وألقوها على مزبلة «مكان القمامة والقذورات» ثلاثه أيام، ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر السيدة نفيسة رضى الله عنها.

ولكن فعلت تلك المرأة فعلاً يشيد بمدى ذكائها فقد جمعت قبل موتها الجواهر النفيسة واللآلئ الثمينة وكسرتها جميعاً فى الهاون حتى لا يكون منها نفع أو رجاء وتصد بذلك المماليك لأن المماليك يحبون الأموال فظنت بفعلتها أنها إما ناجيه أو إن ماتت فقد خسر المماليك من موتها أموالا طائله ولا أدرى أُكمل معكم الحديث عنها أم أنى أكتفى بقولى كفاها أنها كانت أول خطوه خطتها المرأه خارج رادها لتعلن نعم للحرية الزائفة.

المرأة فى العصر الحديث

ربما لا أود أن اذكر امرأة فى عصرنا هذا كمثلأنراه لاننى سأذكر المرأة فى هذا العصر بالسوء إلا من قد رحم ربى

والسؤال الآن لما سأذكر المرأة بالسوء؟

والإجابة لإن المرأة قد خلعت بُرقع الحياء، واخذت تبحث لنفسها عن الهلاك! نعم لا أريد أن يتعجب احد من تلك المقولة، فما نفعله المرأة هلاك، والدليل ما يحدث للفتيات من حالات اغتصاب، وفضائح يوماً بعد يوم، فيوماً الفتاة فى مواقف شائنة، فى الجامعة، ويوما الفتاة تغتصب فى وسائل المواصلات، ويوما تكون ضحية للقتل لأن هناك شباب قد اعتدوا عليها وخافوا من الفضيحة فقتلوها.

والسؤال الآن لما حدث للمرأة كل ذلك؟

والإجابة لانها تطلب الحرية، وبالله عليكم هل لبس البنطلون وترك الشعر مسترسلا، هذه هى الحرية؟

والإجابة نعم هذه هى الحرية فى نظر النساء ولكن ما أجملها من حرية، قادت المرأة إلى الهلاك، وللأسف يريد الغرب المظلم أن يُرسل إلينا المزيد والمزيد من القذارة والعفن تحت هذا الستار (حرية المرأة)، فيجعل المرأة متعفنة نتنة لا تريد إلا الغوغاء ولكنها للأسف لا تستيقظ إلا بعد الوقوع فى الشباك وإن كنتم تريدون الاستزادة فاسألوا من خلعوا تلك الأقنعة الزائفة، من الفنانين والفنانات، وانظروا ماذا سيكون الرد.

أعتقد أنهم سيقولون كنا فى غُشاوة وغُمة وهلاك ولكن الله نجانا منها.

فأخت الإسلام أُريد منك عند قراءة هذا الكتاب المتواضع أن تكتبى لنفسك اسماً فى التاريخ كأسماء أو عائشة أو خديجة أو ما شابه ذلك من نساء لم يعرفن إلانور، عاشوا فيه وماتوا عليه وسيبعثوا إن شاء الله على منابر من نور ولعلى أختم هذا الكتاب المتواضع بقولى «بودى لو أن هناك أسماءاً أخرى أو عائشة أو مصابيح النور، فلتعد».

وأسوق إليك أختى المسلمة هذه الأبيات التى كتبها ابن الخطيب عسى الله أن ينفع بها نساء المؤمنين ولربما، عُدنا بعد غيله، ولنفق بعد ضياع.

وإليكم من الكلمات التى أرجو من الله أن تعلموا بها:ـ

بدت كشمس الضحى تختال معجبة ... بنفسها ومَزِيدُ الحُسنِ يُطغيها

والغانيات لها حُسن تدل به ... لكل ذى شغف يبغى تقصيها

قد خصها الله بالآيات من ترف ... ومن دلال، وحسن فى تعاليها

لها قوام كغصن البان ممتشقاً ... وحسن وجه، تعالى الله منشيها

إذا ابتسمت فالدر يبدو منضداً ... تخاله بارقا ينساب من فيها

وإن خطرت تمش كغزلان واحة ... تروح وتغدو لا تبالى بعاديها

وتمرح فى وجد يذوب ضبابة ... ولم تخشى من ذئب يجوب أراضيها[1]

وتترك هذا الحسن نهبا لصائد ... بغير شباك بل تمد أياديها[2]

أتى أبو مرة[3] يسعى ليفقدها ... عفافها وهى عطشى من سيسقيها

فلم تصن عرضها عمن يدنسه ... من كل آثم يدعو الحب تمويها[4]

يا سوءها من فتاة ضل مقصدها ... عن الحفاظ الذى قد كان يحميْها

وأصبحت سلعة يرتادها سلفاً ... من شاء بالنذر من مالٍ يوافيها

هذى الفتاة التى قد ضاع جوهرها ... رب الهدى، لكن الشيطان يغويها

قد كان مرجعها للبيت يُسعِدها ... زوج كريم لها فى الدار راعيها

---

(١) (ولم تخسن من ذئب يجوب أراضيها):ـأى هى كالغزال فى الحسن والرشاقه والجمال ولكنها ليست مثله في النفور والبعد عمن يبتغى صيدها من ذئاب البشر.

(٢) بل تمد أياديها: أى هى تسعى للصائد بنفسها: ، بدلا من الهروب منه.

(٣) أبو مرة: كنية إبليس اللعين.

(٤) (يدعو الحب تمويها»: أى يدعى حبه لها؛ لتقع فى حباله، وتسقط فى براءته الزائفة، وهذا دائماً شأن الفتيان مع الفتيات، يُوهمها بحبه لها، والرغبه فى التزوج بها، حتى إذا ما انقادت له واطمأنت إلى وعوده، أفقدها أعزما تحتفظ به، ثم تركها حيرى، حسرى..

يا ويحها عافها من كان يطلبها [1] | وعـــابها كل من كان يشربها [2]
وقد أضربها ما حل من عنس | ومن سقامٍ بدت قد عز شافيها
وأصبحت لا يرى إلا رذائلها | أما محاسنها فالإثم يخفيها
يارب لطفاً بنا من كل نازلة | فأنت أرحم بالدنيا ومن فيها
قد قلت يارب ادعونى استجب لكم | وأنقذ النفس من شتى أعاديها
وأبذل الخير مبسوطاً بأمتكم | واغمر النفس بالخيرات أو فيها
فما استمعنا وما تبنا لشقوتنا | ياويلنا من نفوس ضل باغيها
ولكن رأينا فتـــــاة زانها أدب | وعفه لا ترى كبرا ولا تيها
تلوح كالبدر تعلوه سحابته | بحيث لا يبدون منها تثنيها [3].
تسرى فما أنزلقت يوما ولا أسفت | على ضياعٍ ولم تُشَمت أعاديها
يجيئها فاضلٌ يبغى مودتها | ودارها تزدهى حُسناً بمن فيها
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا | فالله حافظها والله حاميها

ولا أدرى بعد تلك الكلمات التى بودى لو كتبت باللآلئ والذهب وحفرت فى الصدور، فما أحُسن من كتب إلا فى وصفه ما نحن فيه من عجب.

فارجو من الله أكون قد نقلت لكن تلك النصائح، وأنتن فى رغبه إليها، وبودى لو عملت بها كل النساء.

واختم قائلا أرجو من الله الصواب فى هذا الكتاب «تاريخ النساء».

---

(١) أى تركها الشاب التى كان يتمنى الزواج منها دون أن يعلم منها شىء.

(٢) وعابها الشاب الذى كان يقنعها بالأفكار الحديثة

(٣) أى تستتر بالحجاب ولا تمشى متثنية كالأفعى بل تمشى فى استقامة..

فهرس المضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

النساء أثناء البعثة المحمدية

الموضوع	الصفحة

المرأة فى عصر ما بعد النبوة

هذا الكتاب

رغم صغر حجم هذا الكتاب إلا أنه قد ضم الأعاجيب، وكشف الحجاب عن أسلحة المرأة التى تخفى علينا، نعم هذه هى الحقيقة فللمرأة أسلحة لا تقاوم، أغرت بها الأنبياء، ولا عجب فى ذلك فكتابنا كُتبَ فيه الأدلة على ذلك، وبأسلحتها الفاتكة أسرت الملوك وحكمت الشعوب ومن لا يصدق فليقرأ الأدلة داخل هذا الكتاب.

وللمرأة جانبٌ آخر جانب التقوى والصلاح فالمرأة ظهرت فى جميع الميادين، فى ميدان الضلال فكانت أبرع من إبليس، وفى ميدان الهدى فكانت أتقى من الصحابة، وفى ميدان الدهاء فكانت أمكر من معاوية، وفى ميادين الذكاء والخداع والقوة فكانت أقوى من الحجاج بن يوسف.

فلننظر إلى هذا الكتاب المتواضع ولنقرأ صفحاته ثم لنحكم هل المرأة كما وصفتها أم لا؟

والحكم بعد القراءة لكتاب "تاريخ النساء"